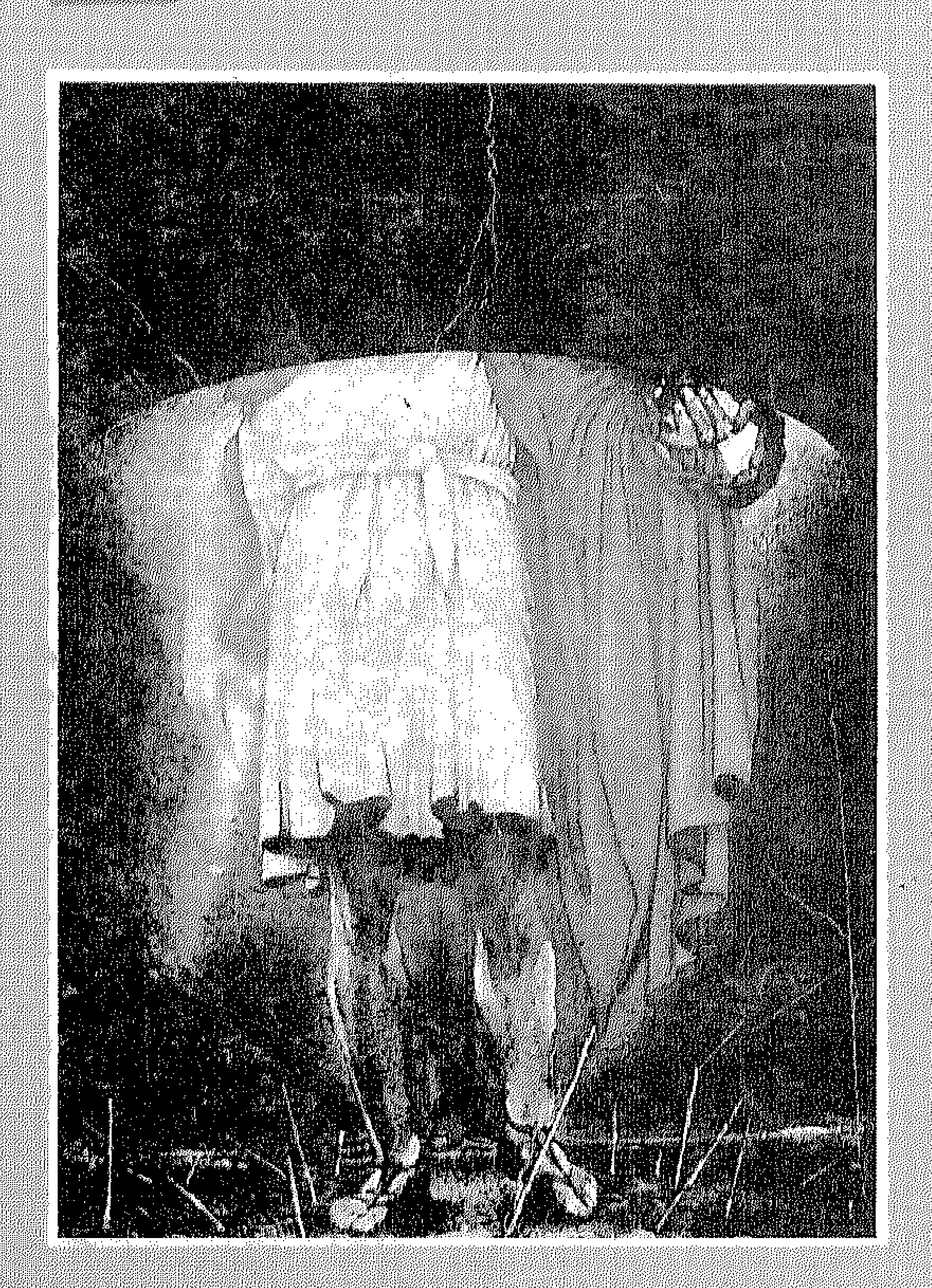
سيد القمني

قصة الخلق

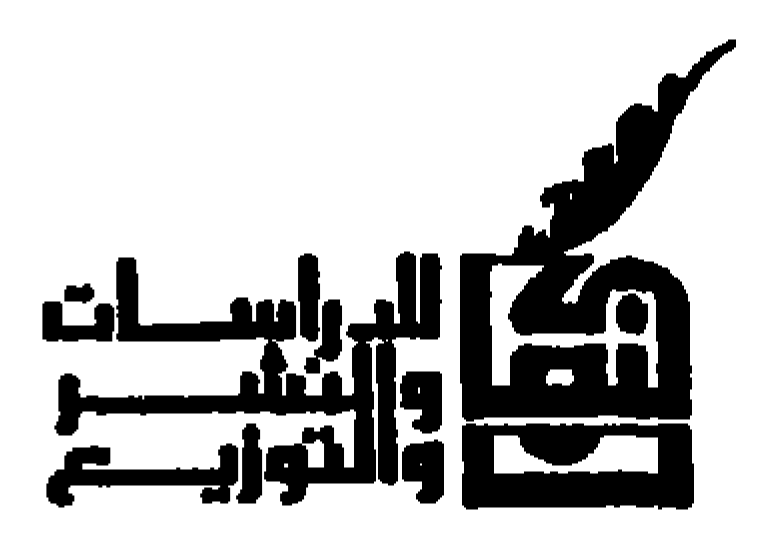




قصة الخلق

أو

منابع سفر التكوين



الناشر: دار كنعان للدراسات والنشر
دمشق - ص.ب (٤٤٣) - هاتف (٢٣٠١٩١)

الطبعة الأولى: ١٩٩٤
(١٠٠٠) نسخة

الإشراف الفني: جمال الابطح

الإهـــــــداء:

لذكرى أبي...

المقدمة

سفر التكوين هو قصة البداية

او هو سفر الحكاية الاولى..

او هو رواية المجتمع الإنساني مذ كان تجمعاً، في البدء وكيف كان؟ إلى ان بلغت الرواية اكتمال نضجها مع قمة تطور السلطة في المجتمع الإنساني، وعندما يحدث التطور الجديد الآتي، فلن يكون ثمة حاجة للرواية، التي رفعت من زمن بعيد لعالم مفارق، كمرآة للواقع الارضي.

فعندما كان المجتمع في الابتداء مشاعاً، كان ارباب السماء في متعة الشيوع تمرح، وعندما تحول المجتمع الارضي إلى مشتركات تراسها مجامع ديمقراطية بدائية، اصبح للآلهة ذات المجامع، لكن لتقرر للبشر على الارض المصائر، وعندما تم تقسيم العمل على الأرض، تحول مجتمع السماء إلى آلهة شغيلة، وآلهة للتفكير والتدبير.

وعندما تمكن الإنسان من الابتكار وصنع الجديد، لم يكن من قبل كائناً، تمكنت آلهة السماء من الخلق والتكوين، وعندما تمركزت السلطة على الارض، في يد ملك على رأس دولة مركزية، واصبحت كلمة الملك نافذة لا تقبل الإرجاء، قيل إنه في البدء كانت الكلمة رغم أنه في البدء كان المشاع، والفعل بلا كلام، فلم يكن ثمة لغة بعد.

وما كتابنا هذا إلا شرحاً لذاك.

وما كشوفنا فيه إلا ناتج قراءة غير مقلوبة لاوضاع مقلوبة، ورؤية غير معتادة لرؤى معتادة، وربط للارض بالسماء، وتسجيل لأثر الإنسان القدسي ووحيه الصاعد على معراج حركة المجتمع البشري.

وإذا وجد قارئنا في تلك المقدمة العجلى لغزاً، فما عليه إلا ان يشمر على همته ليتابع معنا الحل في صفحات الكتاب.

سيد محمود القمني

الباب الأول

سفر التكوين السومري

تأســيــس

يبدو أن بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، كانت بداية لأهم أحداث المجتمع الإنساني، وأبعدها أثراً، في منطقة الشرق الأدنى بوجه خاص، تلك الأحداث التي تركت لنا تراثاً ضخماً، سجلته المدونات، حين بدأ اكتشاف الكتابة، حوالي ذلك الزمان، أو بعده بقليل.

فحوالي سنة ٢٩٠٠ ق.م، كانت مصر قد تحولت من مجموعة مشتركات إقليمية، إلى دولة مركزية موحدة، بينما كان الشعب السومري، قد قضى حوالي خمسة قرون قبل ذلك، يلملم ذاته في جنوبي وادي الرافدين الخصيب، حتى تمكن من تكوين مجموعة مشتركات مدينية، على هيئة مدن مستقلة، يشكل كل منها دولة قائمة بذاتها مع محاولات جادة للتوحيد، لم يكتب لها النجاح الأكيد، ومن ثم لم يقدر لها الاستمرارية، وإن استطاعت هذه المدن ـ إلى حد بعيد ـ أن تترك لنا تراثاً حضارياً ثرياً، يزخر بالقصص والملاحم والأدب الديني، يفسر نشأة الوجود كونياً وكائنياً.

وحوالي نفس الزمان، أو بعده بقليل، تدفقت على وادي الرافدين موجات بشرية مهاجرة، كانت ضمن بحر زاخر من دفقات شعوب مرتحلة، انتشرت بسرعة قياسية على صفحة بادية الشام، وكل بلدان الهلال الخصيب

(الرافدين، سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن) إضافة إلى بادية الشام، واصطلح على تسمية هذه الهجرات (هجرات الشعوب السامية)، وقد زعم كثير من الباحثين أن مصدرها جزيرة العرب، وبالتحديد جنوب الجزيرة، وإن كانت هناك اتجاهات بحثية أخرى لها وجاهتها، قدرت أماكن أخرى كمصدر لهذه الموجات البشرية المتدفقة على شرقي المتوسط، تقصد أماكن الخصب والنماء.

ويلخص (حسن إبراهيم حسن) مختلف اتجاهات الباحثين حوّل مصدر هذه الهجرات، التي بدأت في الألف الثالثة قبل الميلاد - فيما يزعمون -، أو هو بالتحديد يلخص أهم الآراء في أصل الشعوب السامية، فيقول:

«وقد اختلف المؤرخون في موطن الساميين الأصلي، أهم من بلاد العرب؟ أم رحلوا إليها من أفريقيا (أصلاً)؟ أم رحلوا إليها من بلاد الجزيرة؟.. فيقول أصحاب التوراة: إن مهد الإنسان فيما بين النهرين (الرافدين)، ومنه تفرقوا في الأرض فاشتق من الساميين: الآشوريين والبابليين في العراق، والآراميين في الشام والفينيقيين على شواطىء سوريا، والعبرانيين في فلسطين، والعرب في جزيرة العرب، والأثيوبيين في الحبشة، ومرجعهم في إثبات ذلك إلى التوراة، ولا يقول هذا من علماء العصر إلا قليلون. ويرى بعض المستشرقين أن مهد الساميين في أفريقيا ونظراً لقرب بلاد الحبشة من بلاد العرب إقليماً ولغة، قالوا: إن مهد الساميين الحبشة، ويرى بعض آخرون مهد الساميين جزيرة العرب، ومنها تفرقوا في الأرض كما تفرقوا في صدر الإسلام، وذهبت طائفة أخرى إلى أن الساميين من جنوبي الفرات، ولكل من هؤلاء أدلة جغرافية أو اقتصادية أو جنسية أو لغوية، ويرى بعض المستشرقين أيضاً، أن مهد الساميين في بادية الشام إلى نجد، ولم يقطع العلماء في أصل مهد الساميين برأي حتى الآن[١]».

المهم أن هؤلاء النازحين لم يضيعوا وقتاً طويلاً، حتى استطاعوا أن يقيموا لهم دولاً في المنطقة، وتأتينا أهم هذه الشعوب التي أسست هذه الدول،

مابين الأكاديين AKADI الذين تمكنوا من التسلل البطيء إلى بلاد سومر الرافدية، ثم استولوا عليها ووحدوا مدنها في دولة مركزية، بقيادة زعيمهم (سرجون الأول SHARRUKEN-1)، حوالي عام ٢٤٥٠ ق.م، وبين الكنعانيين KANANI الذين تفرقوا في الأرض الشامية حوالي ٢٥٠٠ ق.م، حيث أسسوا مجموعة حضارات متناثرة، حملت أسماء بطون كنعانية، هي فيما تزعم التوراة: المؤابيين، والآدوميين، والعمونيين، والعموريين وقد استطاع البطن العموري أو الأموري في وقت لاحق، أن يخلف الدولة السومرية الحديثة التي خلفت الأكاديين في الرافدين، وأن يؤسس الدولة البابلية، بينما ظهرت على ساحل المتوسط جماعات أخرى، سلكت سبيل تفوقها بالسيطرة الملاحية على البحر، في وقت متأخر من الألف الثاني قبل الميلاد، ويُرجح أنهم كانوا خليطاً من أجناس مختلفة، وإن غلب عليهم العنصر السامي الكنعاني، وهم من عرفهم التاريخ باسم الفينيقيين.

ويزعم المؤرخون، أنه قد تلت هذه الموجة الأولى من الهجرات ـ في وقت متأخر نسبياً ـ موجة أخرى كبرى، حوالي منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، هي هجرة الأراميين، الذين استقروا أول أمرهم في بادية الشام، ثم أخذوا بمنافسة بني جلدتهم الساميين على أراضي الخصب، سواء في الرافدين أو الشام، ردحاً طويلاً من الزمان، فكانوا عامل اتصال وتواصل، بين سامبي الرافدين وسامبي الشام، ويُرجح أنهم تكونوا من عدة بطون من أصل واحد، باعدت بينهم الأزمان والكثرة العددية، ويزعم بعض المؤرخين أن منهم كان الشعب العبري، الذي ظهر على صفحة التاريخ حوالي بداية القرن الثالث من الألف الثانية قبل الميلاد، بعد أن دخل مصر وخرج منها بقيادة النبي (موسى) حوالي عام ١٢٣٤ ق.م، بقصد الاستقرار في أراضي الكنعانيين، المظنون أنها أرض فلسطين الحالية، وتمكنوا حوالي ١٠٠٠ ق.م، أن يقيموا لهم دولة، كان أشهر ملوكها شاؤول ثم داود فسليمان، بينما ظلت بقية البطون الآرامية غير ذات شأن، حتى استطاع بعضهم أن يثبتوا وجودهم

مع اضمحلال الدول الكبرى في الرافدين، فقاموا بغزو ناجح لجنوب الرافدين، أسسوا على إثره الدولة الكلدانية حوالي عام ٦٢٥ ـ ٥٣٨ ق.م.

وهكذا كانت المنطقة مسرحاً رحباً لهذه الدفقات البشرية، التي تكسرت على بعضها في الهلال الخصيب، مما جعلها ميداناً لحروب مستمرة بين هؤلاء المهاجرين وبين من سبقهم وبين من لحقهم، مما أدى إلى تبادل الفكر والثقافة، لكنه أدى أيضاً إلى عدم استقرار دول هذه المنطقة مدداً طويلاً، بعكس مصر، التي توحدت أراضيها مبكراً، وظلت دولة واحدة متماسكة طوال عصور تاريخها الطويل، عدا بعض الانتكاسات الطارئة، وهي انتكاسات لا تقاس بعمرها الحضاري، حتى أن الزمن الذي استغرقته مجموع هذه النكسات، يكاد يعادل الزمن الذي استغرقته أياً من دول الهلال الخصيب متماسكة.

ورغم أن الباحثين يقطعون بأن الشعب السومري الذي ظهر جنوبي الرافدين، قبل الهجرات السامية بحوالي خمسة قرون، أي حوالي ٣٥٠٠ ق.م، ليس من أصول سامية ورغم أن أصله لم يزل محوطاً بالغموض، فإن هؤلاء الباحثين قد تعارفوا على ابتداء العصور التاريخية شرقي المتوسط بالشعب السومري، بعد أن حسبوهم الأصل والدافع الأول للحضارة العريقة التي قامت في بلاد الرافدين، وكانت في رأيهم المنبع الذي استقى منه الساميون الغزاة حضارتهم وفكرهم ودينهم، حتى أن كثيراً من هؤلاء الباحثين قد اعتبروا الحضارة السومرية، ذات تأثير مباشر وغير مباشر في ديانات شعوب شرقي المتوسط حتى العصور الهلّينية[٢] بل ويذهب هؤلاء إلى الزعم أن أهم المآثر الدينية السومرية، تعد حتى اليوم أهم الأعمدة، لأهم المآثر الدينية الحالية في منطقتنا، ناهيك عن لغتهم وطريقتهم التي ابتكروها والمعروفة بالكتابة المسمارية التي ظلت طوال العصور التالية لهم، حتى بعد زوالهم من تاريخ الدنيا، هي طريقة الكتابة المتبعة، والتي أخذها عنهم الغزاة من المهاجرين الساميين، ليسجلوا بها مآثرهم الحضارية، مما ساعد على

انتشار أصرح للمآثر السومرية بين الشعوب السامية أما الساميون الذين تسيّدوا المنطقة بعد غروب النجم السومري، فكانوا جميعاً من أصل واحد، وجنس واحد، بجملة عادات وتقاليد واحدة، مما سهل حمل الأفكار والمعتقدات فكانت اللغة السامية وسيلة اتصال جيدة (رغم تشعبها إلى لغات متعددة عبر تباعد اللهجات بتباعد الأمكنة والأزمنة)، بينما ظلت طريقة الكتابة المسمارية وسيلة توصيل دائمة الجودة.

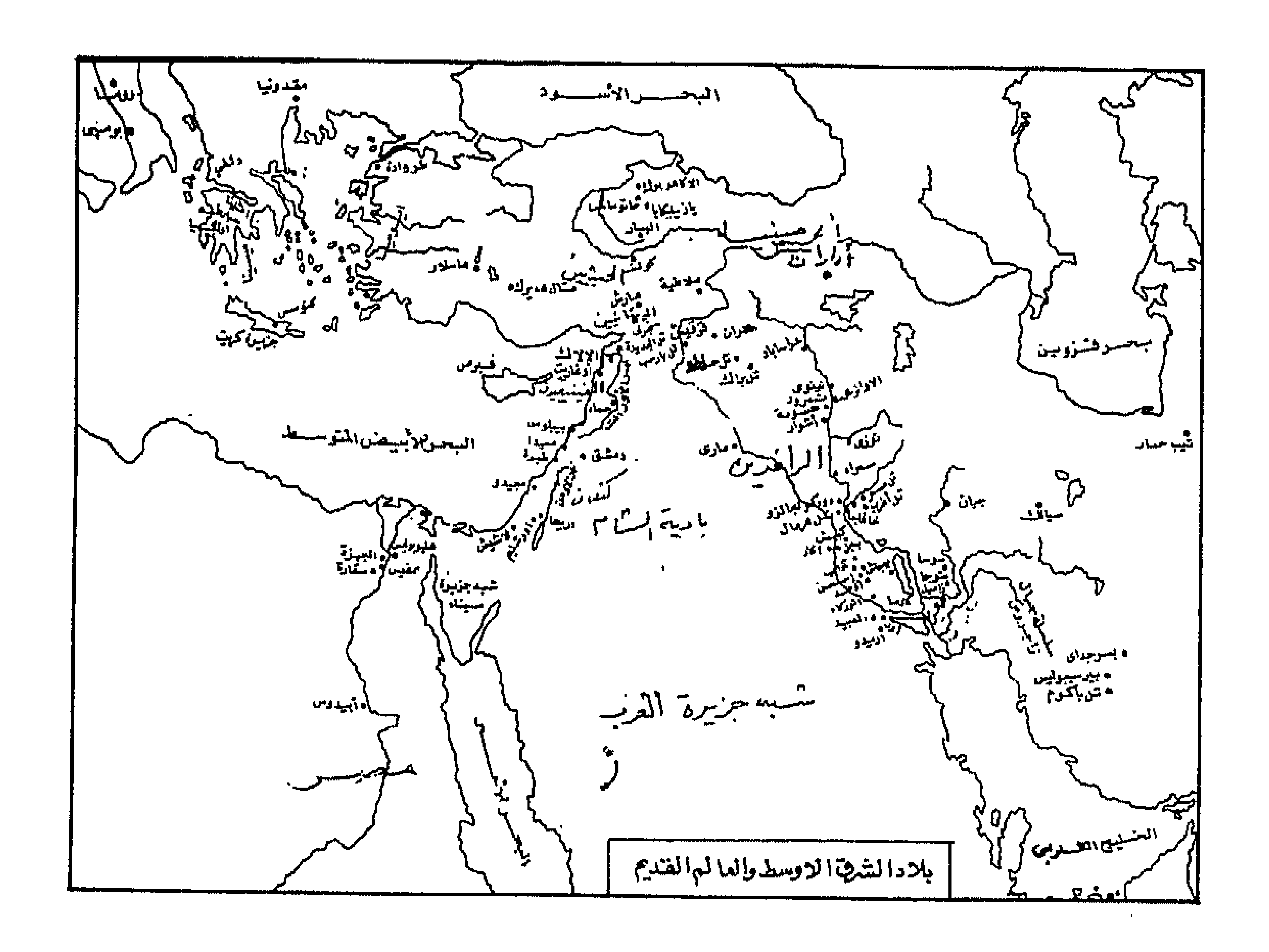
وسعياً وراء ذوي التخصص، ولو مؤقتاً، ونظراً لما لدينا من تحفظات سنطرحها في حينه، فسنبدأ عملنا للكشف عن منابع سفر التكوين، بدراسة ما رآه الباحثون تراثاً أعرق وأقدم في المنطقة، أقصد المنابع السومرية.

المجتمــع:

حاول الباحثون باستمرار ـ وهم للأسف في أغلبهم غربيين ـ أن يلقوا في روعنا أن أي محاولات لاستطلاع أمر الرافدين قبل السومريين، هي محاولات عقيمة لن تصل أبداً إلى يقين، لأنه رغم أن الإنسان استوطن جنوبي وادي الرافدين قبل مايزيد عن خمسة آلاف عام من الميلاد بزمان طويل[٣]، فإننا لا نعرف إلا القليل النادر عن هؤلاء السكان، لعدم وجود مدونات خطية، فلم تكن الكتابة اختراعاً معروفاً بعد، وكل ما نعلمه أنه كان هناك مستوطنون في المنطقة قبل السومريين، كان أشهرهم ما أطلق عليه اصطلاحاً (عصر العبيد)، نسبة إلى المكان الذي عثر فيه على آثارهم ويسمى الآن تل عبيد، وانتهى أمرهم بالانقراض مع الفيضان العاتي لدجلة والفرات المعروف في الملاحم الدينية بالطوفان.

ورغم أن هؤلاء الباحثين يندفعون في أغلبهم إلى اعتبار هذه الفترة السابقة على السومريين، فترة حضارة سومرية أيضاً، فإن باحثاً شهيراً في الآثاريات السومرية هو (صموئيل نوح كريمر)، يذهب إلى أن حضارة

السومريين إنما كانت ناتج تلاقح واضح بين شعب العبيد، المرجح عند (كريمر) أنه سامي الأصل، وبين الشعب السومري الذين هم في رأيه الوافدين الأغراب عن المنطقة، ثم يعقب بقوله: إنه «نتيجة للإخصاب المتبادل، ظهرت إلى الوجود أول مدينة راقية نسبياً في بلاد سومر[٤]»، هذا مع أخذنا بالحسبان تأكيد (لويد Loide) أن السومريين لم يصلوا إلى جنوب



بلاد الشرق الأوسط والعالم القديم

الرافدين، إلا حوالي منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد[٥].

لكننا ـ رغم إشارات باحث مثل كريمر ـ سنظل الآن من الرأي الغالب، فنبدأ دراستنا مع السومريين، بحسبانهم لدى الباحثين في مجملهم بداية وأصل الحضارة في شرق المتوسط.

ومع بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، يمكننا أن نرسم صورة ـ غير دقيقة المعالم تماماً ـ للمجتمع السومري، الذي شكل حضارة زراعية في هذه المنطقة النهرية الخصبة، في شكل مشتركات قروية في البداية، ولم تكن التجارة والنقود متطورين بشكل واضح ـ فيما يخبرنا به شيسنو[٦]، أما الملكية فقد أخذت شكل الحيازة الفردية ضمن المجموع، المالك الحقيقي، بحيث أن ما كان يخص الفرد، إنما كان ضمن المشترك بوصفه عضواً متحداً به[٧]، بل ويعلمنا (فرانكفورت Frankfort) أن كل شيء كان ملكية جماعية، حتى أدوات الفلاحة والبهائم[٨].

ومع مرور الزمن، في بيئة طبيعية متقلبة لا تعرف الاستقرار، وإزاء العواصف غير المتوقعة، والفيضانات المفاجئة ارتبط هؤلاء بقوى غير منظورة، ربطوها بظواهر الطبيعة، وتمثّلوها فيها، وعبدوها رغبة ورهبة، واستشعروا إزاءها التبعية التامة، لكن يبدو أن ذلك لم يكن بحد ذاته كافياً لجلب النافع من الطبيعة، أو على الأقل لدرء غضبها وكوارثها، ومن هنا احتاجت الأمور إلى تكاتف القوى البشرية مع القوى الإلهية، عن طريق وسيط بشري، يتسم بمواصفات رأوها آنذاك علامات لصلة جيدة بالآلهة، فكان هذا الوسيط هو الوساطة الناجعة مع الآلهة، فكان ذلك هو الشكل الرئاسي البدائي لإدارة شؤون الجماعة، بقصد تقليل أخطار الطبيعة وجلب نفعها، عن طريق إدارة شؤون العمل البشري الفعلي المتكاتف، في تنظيم أمور الري والزراعة، والتخفيف من نتائج الكوارث وتنظيم القدرات في مواجهتها، وفي الوقت نفسه يتم ذلك بعلاقة الوسيط مع الآلهة، التي توحي له بأفضل السبل لتوقي أخطار كانت هي اليد الفاعلة فيها؟!.

ومن ثم تقاربت الجماعات لتشّكل مجتمعاً متحداً إزاء الطبيعة، وتخضع لهيئة إدارية من المتصلين بالآلهة، لتمثيل المشترك أمامها، وقد كّون هؤلاء فئة متميزة وجهازاً متراتباً، يعلوه شخص كفؤ، كحاكم مفوض من قبل المشترك، ومسؤول أول أمام أعضاء المشترك وأمام الآلهة في آن واحد.

ويبدو أن الأمر قد بدأ بنوع من التفويض المؤقت لفرد (أصبح يختار له معاونين فيها بعد) من قبل أفراد المشترك جميعاً، والذين كانوا يشكلون مجتمعاً ديمقراطياً بدائياً، يمكن تصوره على هيئة مجلس عام، ويؤكد لنا (هنري فرانكفورت H.Frankfort) أنه عندما ظهرت الكتابة، وجدنا إشارات لمجلسين هما: المجلس العام ومجلس الكبار[(٩)]، ومن ثم تفرغ هذا الفرد ومعاونوه من العمل البدائي، وركّزوا جهودهم الذهنية في التعامل مع الآلهة وتذراتها الطبيعية، بمحاولة قراءة هذه القدرات الظاهرة والتنبؤ المستطاع بفعلها المستقبلي للمحافظة على نظم الري، وتلافي أو مواجهة مشاكل قد تنتج عن تقلب المزاج الإلهي في الطبيعة، أو لمواجهة حروب طارئة مع مشتركات مجاورة تحتاج إلى نشاط سريع وحاسم.

ومع استمرار الطوارىء، تحولت الحاجة لهذه الإدارة من حاجة مؤقتة طارئة إلى حاجة دائماً مستمرة، مما أدى إلى ديمومة سلطة الوسيط ومعاونيه فتحول بالتدريج إلى كاهن وحاكم كبير، كما تحول المشترك القروي بذلك إلى مشترك معبدي، يضم مجموعة مشتركات قروية، لتظهر إلى الوجود دولة المدينة، التي تخضع كلياً لإله المدينة الأعظم، وبالتالي لنائبه ووسيطه الأرضي، حتى عُدّ هـذا الإله سيداً إقطاعياً متغيباً (لبعض شؤونه)، لكنه كان يثبت حضوره باستمرار بما يطلبه من إنتاج أعضاء المشترك المعبدي، من قرابين ونذور وتضحيات وهبات، أدى تراكمها إلى زيادة قدرات الكاهن الحاكم الوسيط، وبدأ يتحول بما يملك من مواد متراكمة وأحياناً نادرة، إلى ملك مطلق النفوذ.

وبمرور الزمن، أخذ الملك يتفرغ للعمل الإداري والسياسي، لمواجهة المشتركات الأخرى التي تحولت بدورها إلى ممالك، تاركاً مهمة الإتصال بالآلهة لأتباع فوضهم عنه لهذا الغرض، ليصبحوا وسطاء يعقدون معها المحالفات، ويتلقون توجيهاتها ويسكنون ثائرتها، ويبلغونها برغبات عُبّادها، ومن هنا بدأت تظهر ثلاث طبقات متمايزة، هي الطبقة الإدارية أو

البيروقراطية ممثلة في الجهاز الإداري الحكومي وعلى رأسه الملك وحاشيته ومعاونيه ورجال جيشه، وطبقة الكهنة، وباقي جماهير الشعب التي تشكل الطبقة الثالثة في الدولة.

وقد وجد الكهنة بالذات سبيلاً سريعاً للإثراء، من خلال إمساكهم بعنان المزاج الإلهي إن رضاً أو غضباً، مما أدى أحياناً إلى اصطدام الكهنة بالملك، مما كان يضطر الملك إلى خلع الإله المزعج، وإعلان نفسه إلهاً، بإنقلاب سلمي يمسك بزمام الكهنة، وحينها كان نظام حكم المدينة يتحول إلى الشكل الاستبدادي المطلق.

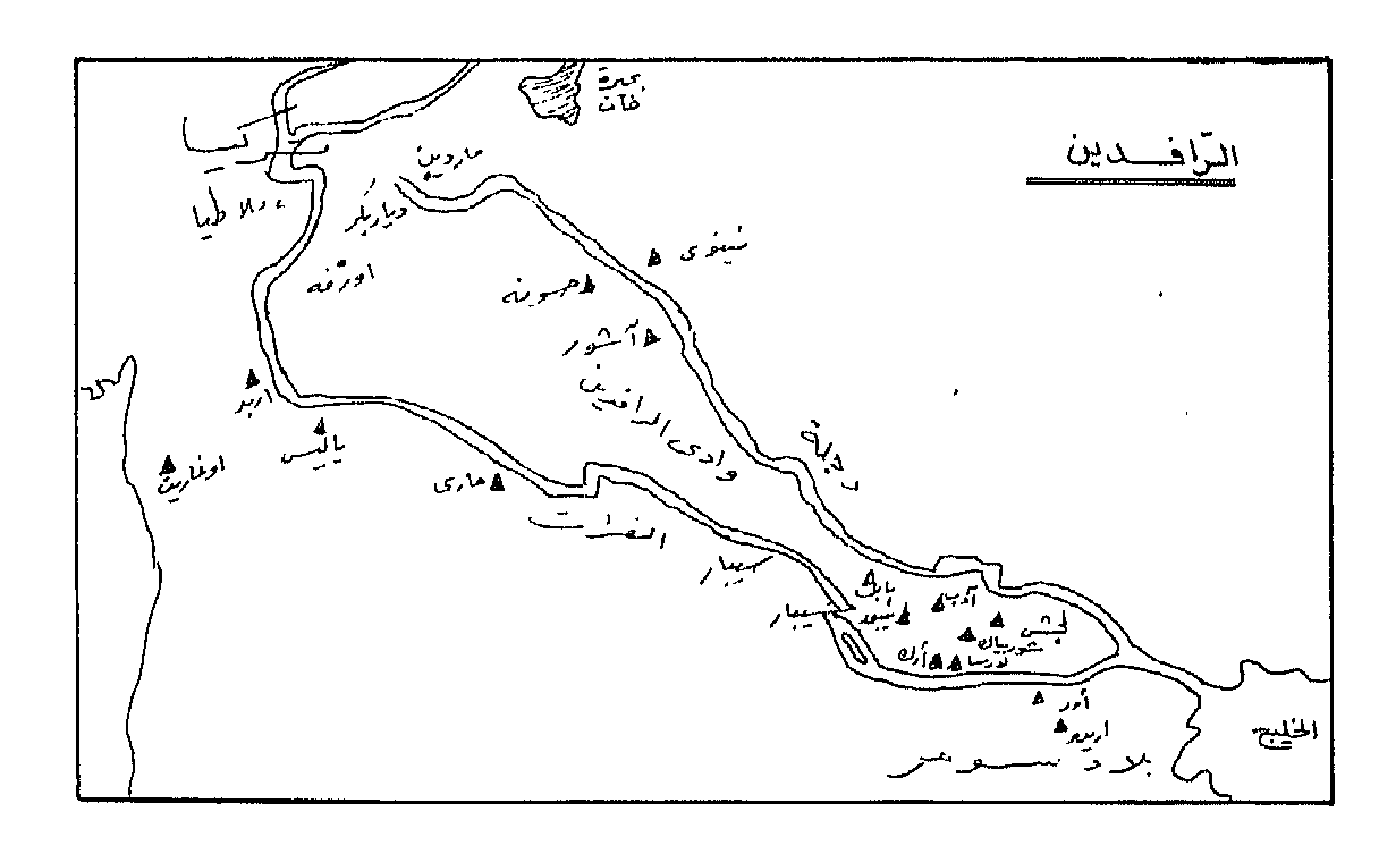
لكن يبدو أن جدل التطور قد توقف بالسومريين عند حدود المدينة، فتحددت ملامح حضارتهم بحدود الدول المدينية، ومن ثم اتسمت هذه الحضارة بخاصية المدن المستقلة، التي لم تعرف الوحدة الشاملة، إلا على يد الغزاة الساميين الذين أقاموا الدولة الأكادية، إلا أن نظام المدن المستقلة السومري، لم يوقف عملية التطور الداخلي لكل مدينة على حدة، فاستمرت عملية النمو الحضاري لكل مدينة تسير في طريقها قدماً، مع تبادل الفكر والثقافة وأهم المآثر الدينية، وكافة الأساليب الحضارية المتيسرة لها، فيما بينها، وهو ما يعقب عليه (عبد العزيز صالح) بقوله:

> وهكذا قطع السومريون أكثر من خمسة قرون من بداية عصر الأسرات العراقي، غابت فيها الوحدة السياسية الكاملة عن آفاقهم.. وذلك على الرغم من أن أهلها في مجموعهم، كانوا يحسون تلقائياً بوحدة جنسهم... ويحسون بتقارب مذاهبهم الدينية التي شجعتهم على أن يتمثلوا أربابهم في بعض آخر وتخيلوا صفات بعضها لبعض آخر[(١)].

ثم يحاول (نجيب ميخائيل) تعليل عدم قيام وحدة سياسية سومرية مركزية كبرى، وهو الأمر الذي أنجزته مصر مبكراً بقوله:

> إن الحياة في وادي الرافدين.. كانت تختلف اختلافاً بيناً عنها في وادي النيل، فوادي الرافدين أقل دفعاً للوحدة السياسية، ومن ثم كانت هناك

الدول المدن التي تأخر توحيدها، وإن لم يقم ذلك دون تطورها، والعراق القديم كان مفتوحاً، بينما كانت مصر مغلقة، أسهم وجود الصحراء على جانبي واديها في صيانة كيانها وردّ كثير من الهجمات حتى استطاعت أن تغلق في كثير من الأحيان أبوابها، دون الطامحين فيها، أما مجاورات العراق القديم، فأراضٍ خصبة، استطاعت أن تأوي إليها شعوب تهددها، وتعرض أراضيها للعدوان، الذي كان يؤثر على ركب الحضارة، فيعطله أو ينال منه (١٢).



ومع ذلك فيبدو أن السومريين قد استشعروا نوعاً من الوحدة القومية بينهم رغم الفرقة السياسية، وهو ما يمكن أخذه من تأكيد الآثاريين:

إنه ليس هناك شك بأن السومريين كانوا يعتبرون أنفسهم من صنف الشعب المختار.. في أسطورة إنكي ونظام العالم، التي تعالج موضوع خلق إنكي للذاتيات الطبيعية والحضارية والعمليات الضرورية للمجتمع المتمدن وتنظيمها، نجده يبارك بلاد سومر بكلمات رفيعة، تكشف أن

السومريين يعتقدون بأنفسهم كمجتمع، أو بالأحرى مجتمع مميز ومقدس، متصل بالآلهة اتصالاً أقوى من اتصال بقية البشر بها، بشكل عام[١٢].

بل أنه رغم اعتراف المهتمين بالحضارة السومرية، أن السومريين مجموعة غريبة على المنطقة، فإنهم يزعمونهم أصحاب ثقافة قدر لها السيادة على جميع أجزاء الشرق الأدنى، فيقول (كريمر Kramer): «وتتجلى هذه السيادة الثقافية في عدة اتجاهات:

١ ـ إن السومريين هم الذين طوروا، ومن المحتمل أنهم قد ابتكروا، طريقة الكتابة المسمارية، التي اقتبستها جميع شعوب الشرق الأدنى على وجه التقريب.

٢ ـ طور السومريون المفاهيم الدينية والروحية، كما أدمجوا مجموعة الآلهة المختلفة على نحو رائع، فكان لهذا الدمج أثره العميق على شعوب الشرق الأدنى، بضمنهم العبرانيين والإغريق، إضافة إلى نفاذ الشيء الكثير من هذه المفاهيم الروحية والدينية إلى عالمنا المتمدن، عن طريق الأديان السماوية[١٣].

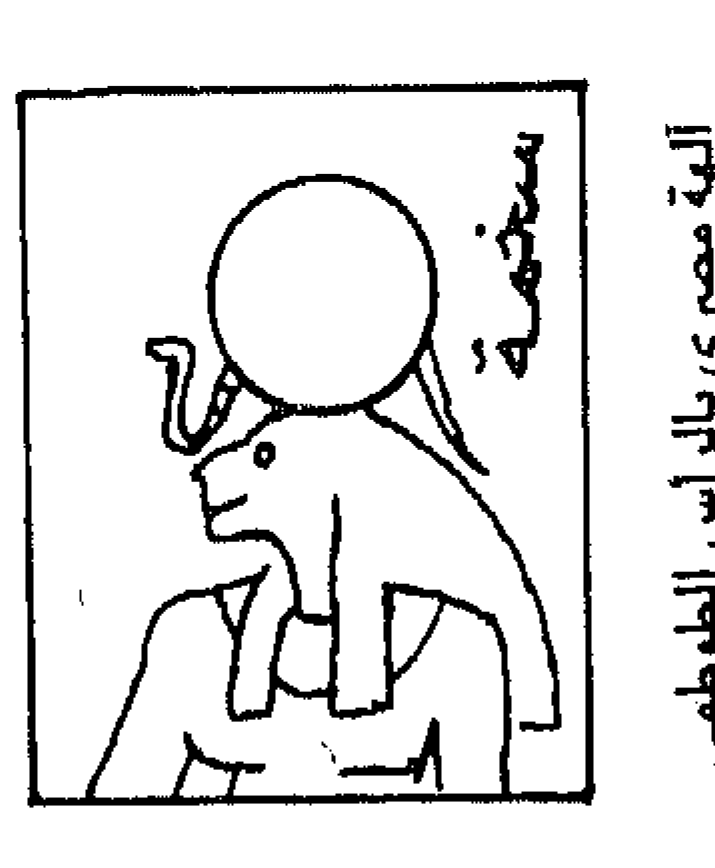
ويكمن ذلك عند (كريمر Kramer) في أنه قد «طور السومريون خلال الألف الثالث قبل الميلاد، أفكاراً دينية ومفاهيم روحية، تركت في العالم الحديث أثراً لا يمكن محوه، خاصة ما وصل منها عن طريق الديانات: اليهودية والمسيحية والإسلام، فعلى المستوى العقلي، استنبط المفكرون والحكماء السومريون، كنتيجة لتأملاتهم في أصل الكون وطبيعته، وطريقة عمله، نظرية كونية، وأخرى لاهوتية، كانتا تنطويان على إيمان راسخ وقوي بحيث أنهما أصبحتا العقيدة والمبدأ الأساسيين، في أغلب أقطار الشرق الأدنى القديم، وعلى المستوى العملي والوظيفي، طور الكهنة ورجال الدين السومريين مجموعة من الطقوس والشعائر والاحتفالات، الغنية بالألوان والتنوع، التي كانت تؤدى لغرض إرضاء الآلهة وتهدئتهم، بالإضافة إلى مافيه من إشباع عاطفي، لحب الإنسان للمهرجانات والمشاهد الضخمة[١٤]».

الآلهـــــة:

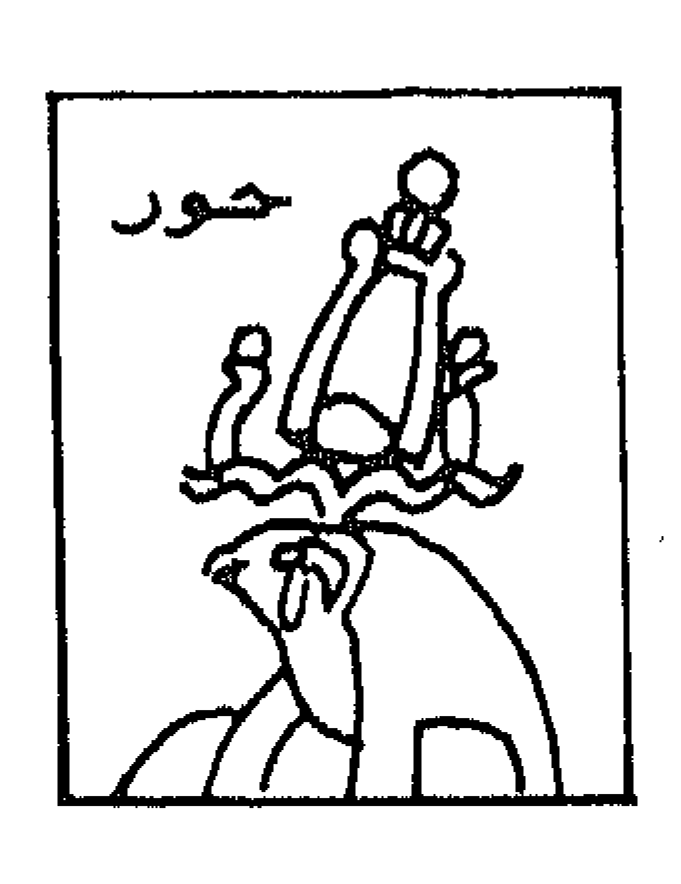
وأهم مايمكن احتسابه للفكر الديني السومري في رأينا، أنه استطاع - مبكراً - إن يفصل بين الآلهة وبين أشكالها الطوطمية، فغلب على نقوش الآلهة الهيئة الإنسانية، بينما احتفظت الذاكرة بالأصل الطوطمي كرمز ينقش قابعاً إلى جوار الإله، أو يحمله الإله بين يديه، أو يُرسم على ثوبه، بعكس المصريين الذين لم يتحرروا تماماً من الأصول الطوطمية للآلهة، فجسموا الإله في الشكل الآدمي مع الإحتفاظ بالرأس الحيواني الأصلي، ويبدو لنا ذلك ناتجاً عن الفارق الطبوغرافي بين المنطقتين، حيث كانت مصر مغلقة الحدود، متجانسة التكوين جنسياً وفكرياً إلى حد بعيد، بينما كانت الرافدين بلاداً مفتوحة، تلاحقت فيها أجناس وثقافات متعددة، أدت في أحيان كثيرة إلى نوع من التجريد المطرد، أدى إلى سلخ الآلهة من جذورها البدائية، وهي ظاهرة نلحظها أيضاً في تطويرهم الكتابة إلى نوع من الخط المجرد، ابتعد بسرعة عن أصله التصويري، بينما ظل الأصل التصويري في الكتابة غالباً فترة طويلة على الكتابات الهيروغليفية في مصر، ولم يتحرر المصريون منه بشكل واضح إلا بعد احتكاكهم بالشعوب الأخرى، وبعد غزوات متعددة لأراضيهم في نهاية الإمبراطورية المصرية، وسقوط الدولة الحديثة، مما أدى بالهيروغليفية إلى التحرر من التصوير والتحول إلى التخطيط؟ لتتطور إلى (هيراطيقية، ديموطيقية، قبطية) ولاشك لدينا أن هذا الميل إلى التجريد، قد صار خاصية لشعوب شرقي المتوسط الأدنى عموماً، لتشابه الظروف البيئية، وكان دافعاً فيما بعد إلى ظهور الفلسفة اليونانية، التي هي امتداد طبيعي لفكر المنطقة وتعد في المقام الأول فكراً (أيونياً) مشرقياً، ومن خلال التفوق الفينيقي التجاري والبحري ومانتج عنه من احتكاك اجتماعي، في الألف الأولى قبل الميلاد.

ومع ذلك فقد استمرت التعددية المفرطة هي سمة الديانة السومرية،

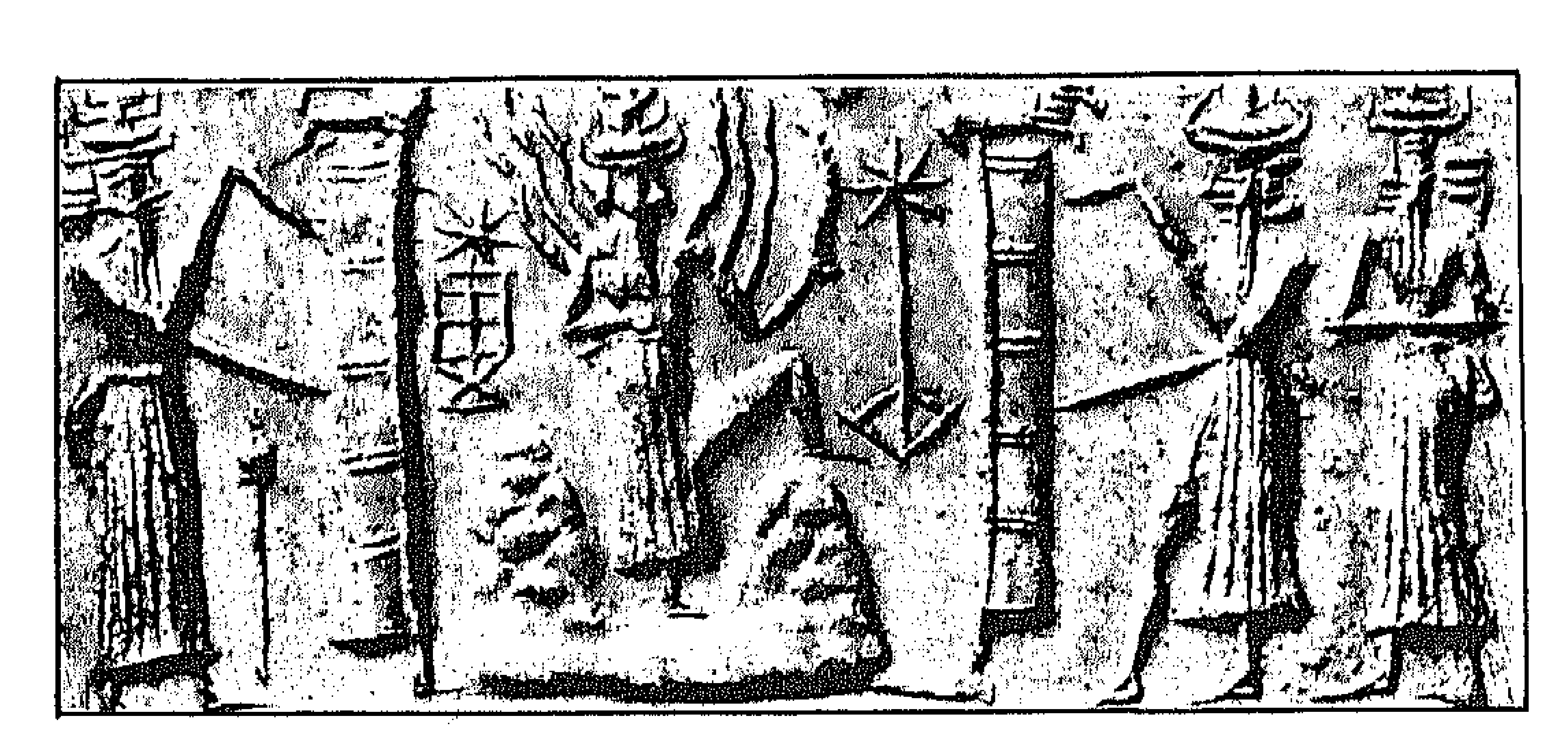
حتى أمسى للفأس إله، ولقالب الآجر إله، وللمسمار إله، ولكل فرد إله خاص به يحميه وفق طموحاته الشخصية، يحابي فيه نزعاته وطموحاته وميوله، إضافة إلى افتراض رباً أو ربة لكل ظاهرة طبيعية، كبر شأنها أو صغر، كما افترضوا لأربابهم صوراً، بشرية ضخمة، وحياة تماثل حياة البشر، تزاوجوا فيها وتناسلوا وتحابوا وتخاصموا وتقاتلوا، لكنها كانت حياة سرمدية، ذات قدرات مطلقة.







آلهة مصري بالرأس الطوطمي



آلهة رافدية بجسد الإنسان ورأسه وإن غلب على الرأس نوع من التجريد إمعاناً في الغموض والتغييب

أما عندما يكون وجود هذه الآلهة ضرورياً في ذاتيات الكون الموكلة بها. فإنها كانت تعيش في (جبل السماء والأرض)(١٥)، وإني أتصور ذلك نوعاً من الفصل بين آلهة عاملة (شغّيلة) مرتبطة باستمرار بالظواهر الطبيعية مطّردة

الحدوث، ودائمة التأثير المباشر في حياة الإنسان السومري، وبين آلهة متفرغة للعمل الذهني النظري وللإدارة في جبل السماء والأرض، ويحتمل أنها كانت الآلهة الكبرى، والظن عندي أن ذلك راجع إلى ظهور الكهنة المفوضين للإدارة في المشتركات الأولى، التي تحولت إلى مشتركات قروية ثم معبدية، مما طبع شكل المجتمع الإلهي، بما وصلت إليه أحوال المجتمع السومري اقتصادياً وسياسياً، وكما تفرغ الكهان من العمل البدني للإدارة، فقد تفرغ مجموعة من الآلهة وتحرروا من العمل الملاصق لعمل الطبيعة الدائم وهو ماتدل عليه أسماء هذه الآلهة، الذين شكلوا مجاميع إلهية أشهرها:

- مجمع الآلهة مقررة المصائر، وعددهم سبعة.
- مجمع الآلهة العظام، وعددهم خمسين إلهاً[١٦].

وفوق هذه الآلهة جميعاً، كانت عناصر الكون الكبرى، ذات التواجد الدائم الثابت (السماء، الأرض، الهواء، الماء)، آلهة لها خصوصيتها المتميزة باستمرار التواجد المنظور، إزاء الآلهة الأخرى متغيرة الأحوال، التي لاتتسم بديمومة التواجد، ونذهب إلى أن ملاحظة السومري المستمرة، لجدل التأثير المتبادل بين الظواهر الأربع الثابتة، في إنتاج الحياة، وضرورة استمرار هذا الجدل لضمان استمرار الحياة، كما لو كانت مهمتها الإشراف على هذه الاستمرارية وتتابعها. أقوال: إن هذه الملاحظات قد سوغت للسومري المتأمل، الاعتقاد أن هذه الظواهر الأربع إنما هي أربع من الآلهة، تكاتفت معاً لتقوم بخلق بقية كائنات الوجود، ومن ثم أطلق عليها (الآلهة الخالقة)، وهي:

- آن AN الإله السماء.
- كي KI أو (جي) GI الإلهة الأرض زوجة إله السماء.
- آنليل AN-LIL الإله الهواء ابن إلهيّ السماء والأرض.
- آنكي AN-KI الإله الماء.

ويرجح (كريمر) أن تكون هذه الآلهة الأربع هي الأعضاء الكبرى في مجتمع السبع مقررة المصائر، ويكون بقية هذا المجمع إذن هم الآله:

- نانا NANA الإله القمر.
- أوتو UTO الإله الشمس وهو ابن إله القمر.
- أينانا ENANA إلهة كوكب الزهرة[17].

وإن كان موسكاتي يجعل من هذه الثلاث الأخيرة أسرة إلهية مثلثة تضم: الأب القمر والأم الزهرة والابن الشمس[18].

وهكذا تكوّن مجمع الآلهة السبع مقررة المصائر، من أسرتين ثالوثيتين كل منهما يشتمل على ثالوث (أب وأم وابن)، فشكّلا معاً ستة من الآلهة، بينما ظل سابعهم (آنكي ـ الماء) حالة شاذة وسط هذا المجمع، باعتباره ليس عضواً في أي من الأسرتين الثالوثيتين، وإن كان يكمل الأسرة الأولى لتصبح أربعاً من الآلهة الخالقة، وهو أمر حيرنا من البداية، لكنها حيرة أثمرت عن كشف هام، يعد واحداً من أعمدة هذا القسم من بحثنا.

وحتى نتمكن من الوصول بقارئنا إلى الكشف المأمول، نقف أولاً مع الآلهة الأربع وقفة تفصيلية بعض الشيء، نستقي أخبارها من المصادر، فتطالعنا بأن:

١ ـ آن **AN**: هو إله ذكر، وهو إله السماء، والكلمة (آن) تعني أيضاً السماء المنظورة ذاتها، وكانت في رؤيتهم سقفاً يعلوهم، ثم أصبحت (آن) بالتدريج علماً ورمزاً على الألوهية عموماً، فعادلت ـ بمعنى من المعاني ـ اسماً للجلالة، تدل على ألوهية أي مسمى إلهي وبذلك حملت معنى السيادة والرفعة والسمو، لذلك كان (آن) سيد الآلهة جميعاً، باعتباره في نظرهم كان الأب الأول لكل الآلهة وسيد الآلهة السبع مقررة المصائر[19].

ويقول (كريمر): إن الأسباب التي أدت إلى تَسّيُّد (آن) مجموعة الآلهة السومرية، أسباباً غير معروفة[20]، لكننا نتصور وببساطة أن رؤية الرافدي

القديم للسماء بفسحتها واتساعها، وتعدد الألوان والأحداث والظواهر فيها مع ضخامة هذه الظواهر، وجسامة هذه الأحداث، ومطرها الذي يشكل للأرض مَنيِّ الحياة، ثم إحاطة السماء للأرض في الأفق، وتغطيتها من جميع جوانبها، كل ذلك كان كفيلاً بتصورها بما يلائم عظمة اتساعها ورحابتها وتعدد الإمكانات فيها، مقابل ضيق المساحات المرئية أمامه بشكل مباشر على الأرض، التي مهما بلغت مظاهرها هولاً وغرابة، فإنها لم ترقَ أبداً في نظره إلى درجة ظواهر السماء، مع أخذنا بالحسبان عدم التماس المباشر بينه وبين السماء، مما جعلها مجهولاً دائماً يقع في نفسه موقع الجليل، بما له من هيبة ورغبة واحترام وتقديس، فكان أن تصور السماء أعظم الآلهة، وأباً أولاً دائم الاقتدار، بتواصل وديمومة مستمرة، يخصب الأم الكبرى (كي KI) الأرض، وهو يحتضنها ليلقي في أحشائها بدفقات ماء الحياة، ومن هنا ظلت السماء (آن)، وظل الإله (آن) يقع في الوهم الإنساني ـ حتى اليوم ـ موقعه القديم، فنتحدث عن الإله مجازاً فنقول: السماء، أو نتصوره قابعاً على عرش في بيت إلهي في السماء، أو نتفعل فنقسم أغلظ الأيمان بحق السماء! ولايبقى عن (آن) الآن، سوى ترجيحنا أن يكون هو نموذج الأب الأول في مشترك العشيرة البدائي.

٢ ـ كي **KI** أو جي **GI**: وهي إلهة أنثى هي الأرض تعددت أسماؤها وشخصها واحد، فهي كزوجة للسماء الذكر (آن AN) تسمى (أنتوم AN–TUM)[٢١] مؤنث الكلمة (آن AN) وهي أيضاً (نينماه أو نينا ماه NIN–MAH)[٢٢]، والإسم (نينماه) يشير إلى مدلول هذه المعبودة في الذهن السومري، فهو مركب من ملصقين: (نن NIN) بمعنى السيدة أو العظمى، أو السيدة العظمى ولا زلنا ننادي الأم، والأم الكبرى (الجدة) باللفظ (نينا)، والملصق الثاني (ماه MAH) أي الأم، وتصبح الترجمة: السيدة الأم، أو الأم العظمى أو الأم الكبرى، كما عرفت (كي) أيضاً باسم (نينتو NINTO)[٢٣] وهو اسم يحمل أيضاً معنى الأمومة، لأن (نن = السيدة + تو = تلد) أي

السيدة التي تلد، أو السيدة الوالدة، أو إيجازاً: الوالدة. كما سميت أيضاً (أرش ARSH) بمعنى أرض، كما حازت على الألقاب (مامي MAMY) و(ماما MAMA) و(ما MAH)[٢٤]، كلها تحوي (ميم) الأمومة.

وقد شكلت (كي) مع (آن) فكرة ابتدائية عن نشأة الحياة على الأرض أو ما يمكن اعتباره سفراً بدئياً للتكوين، صادق صدق بدائيته، مطابق لراسب خبرات الإنسان، وملاحظاته، عن دور مطر السماء أو منيّ (آن) وفعله في الأم الأرض لتنتج الحياة، لكن هذا السفر يقف عند هذا الحد عندما يبدأ الخيال الإنساني يتدخل في صناعة الفكرة، ليأخذ التكوين خطاً آخر أكثر تعقيداً من بساطة الحقيقة.

٣ ـ آنليل ANLIL: وهو إله ذكر، هو إله الهواء وهو الضلع الثالث، في ثالوث: الأب فيه آن والأم كي والابن آنليل، وعنه يقول (جان بوتيرو): «آنليل يعني باللغة السومرية، سيد الريح والعاصفة ومجال عمل آنليل هو الأرض، فهو الذي يُسّير البشر. . . وقد لقب السيد[٢٥] ولنلحظ أن الإسم (آنليل) مركب من (آن = سيد أو إله أو رب + ليل وهي مادة مابين السماء والأرض من هواء ورياح وسحب)، ويقول (نجيب ميخائيل): . . . «إن كلمة آن ليل تعني أصلاً سيد الريح والروح، وهو لم يأخذ لقب سيد الأرض إلا فيما بعد. . ومعبده هو (بيت الجبل E–KUR)[٢٦]، ويقول (عبد الحميد زايد) أن آنليل هو «سيد مابين السماء والأرض، فهو إله الهواء وما يتعلق به، كما لقب أيضاً بأبي الآلهة. . . كما يقود آنليل الآلهة إلى الحرب، فهو يمثل القوة والبطش، فكان آن يرأس الاجتماعات في مجمع الآلهة وكانت وظيفة آنليل تنفيذ أحكام هذا المجمع، فآن وآنليل هما العنصران الرئيسيان، وكانت وظيفة آنليل تنفيذ أحكام هذا المجمع، فآن وآنليل هما العنصران الرئيسيان في الدولة، هما السلطة التشريعية والتنفيذية، . . وقد عُهد إلى آنليل بالمحافظة على ألواح القدر»[٢٧]، ومن ألقابه «سيد جميع البلدان، أبو جميع الآلهة، مقرر المصائر، الذي لا رجعة لقراراته، الذي يمتلك ألواح القدر

الذي فصل أبيه السماء عن أمه الأرض، خلق الفأس أداة العمل، الجبل العظيم، هذا وكان مقر عبادته في مدينة نفر، وكان هنالك تقليد سنوي، تذهب فيه بقية آلهة المدن لطلب الرحمة والبركة من آنليل لحكام مدن هذه الآلهة، وهو الإله الوحيد الذي اغتصب أنثاه ننليل، فأنجبت منه القمر نانا»[(٢٨)]، مع ملاحظة هامة هي أن رمزه التصويري كان ذات رمز إله السماء آن.

ويقول (كريمر) إنه «. . يوجد في أقدم التصانيف السومرية المنشورة عدد كبير من القطع الأدبية التي نطلق عليها اسم المراثي، نرى فيها الإله (آنليل) يقوم بذلك العمل البغيض، وهو القيام بإحداث الدمار وتنفيذ الكوارث والبلايا، التي كانت تأمر بها الآلهة لسبب من الأسباب، وهذا هو السبب في وصم آنليل بأنه إله شرس مدمر في كتابات الباحثين القدماء في الشؤون السومرية، ولكن الحقيقة هي أننا لو حللنا التراتيل والأساطير لاسيما مانشر منها منذ عام ١٩٣٠، لألفينا الإله آنليل وقد مجدوه بصفته إلهاً رحيماً، يتحلى بالحنو الأبوي، ويعنى بسلامة جميع البشر وخيرهم»[(٢٩)].

وبالاجتهاد يمكننا فهم هذا التضارب في شخصية آنليل ويمكننا تفسير استطاعته إزاحة أبيه (آن) ليتحول إلى رمز مسلوب السلطان، وهو أمر شائع في الميثولوجيا الشرقية عموماً، في قصة الابن الذي يتفوق على أبيه ويسلبه سلطاته، وهو ما يبدو لنا صدى طبيعياً لواقع أحوال الإنسان البدائي قبل استقراره وتحضره، حيث كان الأب القوي يظل سيداً أو حامياً للقطيع حائزاً لكل الإناث، حتى يظهر من بنيه ذكر قوي ينافسه السيادة وحياة الإناث، فينازعه سلطانه ويدعوه للنزال، في وقت يكون فيه لعامل السن دوره، في إزاحة الأب الكهل، ليحل الابن الشاب القوي محله في سيادة القطيع والذود عنه، ويتحول هو إلى أب جديد للقطيع، لكن هذه السيادة الأبوية البدئية، بدأت تفقد سلطانها مبكراً مع التطور الاجتماعي، عندما أصبحت السيادة تحتاج إلى مقومات أكثر من مجرد الأبوة، أو القوة الجسدية واستدعت وجود

كفايات متعددة في سيد العشيرة، المفوض من مجموعة عشائر مؤلفة من مشترك بدائي، مما أدى إلى ضرورة التحول نحو قانون جديد، فرضته ظروف التجمع الأكبر حيث ساد مجموعة من رؤساء العشائر الآباء، تحول أحدهم إلى أب مفوض للمجموعة العشائرية المتحدة في مشترك قروي ثم معبدي ليكون همزة الوصل بين الأب القديم الذي تحول إلى إله غائب، وبين أفراد المشترك، أو بين الآلهة عموماً وبين الناس، في شكل كاهن رئيس، متحرر النفوذ من أسر مجلس القبيلة العام.

أقول: عندما فقد الأب البدائي سلطانه في المجتمع الأكبر، انعكس ذلك على عالم الآلهة، ففقد إله السماء سلطانه الأبوي، المتصف في الأساطير بالحنو البالغ والشفقة، وظهر ولده آنليل، وقد حدث ذلك على مايبدو وبالتدريج البطيء الذي حدث به في عالم البشر، حتى صار (آن) مجرد شخصية هلامية مبهمة غامضة في مجمع الآلهة، وإن ظل محتفظاً باحترامه كأب أول خالق، لكن مسلوب السلطات.

وكما تحول الأب المفوض في المجلس العام بالمشترك البدائي إلى حاكم متحرر النفوذ، وتحول آنليل بمفهوم الألوهية من الرحمة إلى الشراسة، يمتلك أقدار الناس وأقواتهم (الذي يمتلك ألواح القدر)، ويتفرغ للعمل الذهني لتطوير أدوات الإنتاج (خلق الفأس أداة العمل)، وينظم أعمال الناس (يسير البشر)، ويقود الجيوش (يقود آنليل الآلهة إلى الحرب)، لذلك أصبح (سيد جميع البلدان)، وتوجب (أن تذهب إليه بقية الآلهة لطلب الرحمة) باعتبار الحاكم الذي يمثل آنليل مفوضاً من جميع العشائر المتحدة وسيداً متحرر النفوذ محل الأب البدائي، وهو ماترك أثره في تصويره الرمزي، بنفس رمز الأب آن.

٤ ـ آنكي **ANKI** أو آنجي **ANGI**: وهو إله ذكر، يتركب اسمه من ملصقين (آن = السماء + كي = الأرض)، أي (السماء والأرض)، وبترجمة

بعض الباحثين (السيد الأرض) باعتبار (آن) تعني السيادة والجلالة أيضاً، فهو بذلك إله الأرض، لكن هذا يتضارب مع حقيقة ميثولوجية متواترة في ميثولوجيا البلدان الزراعية، حيث اعتبرت الأرض دوماً إلهة أنثى كمصدر للحياة، كما يتضارب مع حقيقة أخرى هي أن آنكي كان يعد لدى السومريين إلهاً للماء وكان بهذه الصفة إلهاً ذكراً، حيث كان سكان المناطق الخصبة ينظرون إلى الماء كمني للأرض، وسائل يخصب الأنثى الأرض لتحمل بالزرع.

وسمي آنكي باسم آخر هو (آبسو ABZU) وهو بدوره ملصق من كلمتين (آ A = الماء) + (بسو BZU)، ويترجم الباحثون (BZU) بمعنى البعيد أو العميق[٣٠]، ويقول (نجيب ميخائيل)، إنهم قصدوا بذلك المياه الجوفية[٣١]، لكن الغريب في بابه أن هذا الإله، وهو رابع الآلهة الخالقة الأربع، المكّونة من أسرة ثالوثية (آن، كي، آنليل) مضافاً إليها (آنكي) رغم كونه ليس عضواً في الأسرة!! ثم لماذا يكون (آنكي) ماء العمق أو المياه الجوفية بالذات، كعنصر إحياء فاعل في عملية الخلق؟ لماذا لاتكون مياه الأمطار أو الأنهار هي صاحبة هذا الدور الخالق، في بلد يغمره النهرين العظيمين: دجلة والفرات؟.

الحقيقة أني وقفت مع (آنكي) أو (آبسو) وقفة طويلة، انتهيت منها إلى اعتباره فعلاً ذكراً هو الماء، لكنه ماء إلهي، أو هو مني الإله (آن) السماء، الذي زرعه في رحم الأم الأرض (كي)، وهو مايفسر لنا تركيب اسمه من السماء والأرض معاً (آن + كي)، فهو الفعل المشترك لأبوي الحياة، هو ماء الحياة الذي استقر في رحم الأرض لتظل دائماً مصدراً مستمراً للحياة مما يفسر غياب (آن) وتواريه، بعد أن قام بالمطلوب منه دفعة ومرة واحدة، ثم ترك لمائه يفعل فعله المستمر في إنتاج حياة مستمرة، وهو أيضاً مايفسر لنا تأليه (آنكي) كإله خالق، رغم كونه ليس عضواً في الأسرة الخالقة الثالوثية، فهو خالق باعتباره مني (آن)، أو هو روح قدسية منه حلّت في حشا الأم الأرض

(كي)، ويلتقي ذلك مع اعتقاد السومريين أن مياه الأنهار تنبع من مياه العمق تحت الأرض، وهو مايشككنا في ترجمة (آبسو) بماء العمق فكلمة (آبسو) نعم تحمل معنى الغور والبعد، لكنها مع فهمنا للأمر تتضح، فتصبح (المياه الكامنة في الرحم) وأقترح الترجمة الأدق وهي (السائل المخصب)، ويدعمني في ذلك أن الإله (دوموزي آبسو DUMU–ZI–ABZU) يترجم اسمه إلى (الابن الحقيقي لمياه العمق)[٣٢]، علماً أنه كان إلهاً للخصب وموكلاً بإخصاب الأرض، إضافة إلى أن (آنكي) باسم (آبسو) كان يعد خالق الزرع والحياة والبشر، أو نصياً (الذي خلقت يداه البشر)[٣٣] وهو (خالق العالم)[٣٤]، وإن تحليلنا هذا، وترجمتنا تلك، توضح لنا: لماذا أدخله السومريون ضمن الآلهة الخالقة، رغم كونه ليس فرداً في الأسرة الثالوثية الخالقة، وهو ماينقلنا إلى بحث الدور الذي قام به كل من الآلهة الأربع، في عملية الخلق.

* * *

التكوين الكوني:

عندما لم يكن العلم بجغرافية الأرض قد اتسع بعد، تصور السومريون الأرض قرصاً منبسطاً هو الدنيا، محدد بحدود لا تتجاوز الهند شرقاً والبحر الأبيض المتوسط غرباً، وبلاد الأناضول والقوقاس شمالاً، والخليج العربي وبعضاً من المحيط الهندي، وجزيرة العرب، جنوباً.

ويقع تحت هذا القرص، عالم تحت أرضي سفلي، هو مقر الأموات، ويلي مقر الأموات مياه العمق، التي اتفقنا على ترجمتها بـ (السائل المخصب آبسو ABZU أو آنكي ANKI)، ولو صعدنا على وجه القرص الأرضي، نجد هناك قرصاً آخر يعلوه هو السماء، مقر (آن) وكثير من الآلهة، وهو قرص محدّب في شكل قبة صلبة تحيط بالقرص الأرضي من جميع جهاته، ثم مابين القبة السماوية والقرص الأرضي يمرح الريح أو الهواء أو الروح أو الجو أو الأثير، تلك المادة التي أسموها (ليل LIL)، وكل هذا في مجموعه يقف راكداً في بحر لا متناهي يحيط بالكل من جميع الجهات، وهذا البحر اللا متناهي كان ـ في اعتقادهم ـ منبع كل الوجود ومادته الأولى[٣٥]، وهذا هو كل شيء، كل الكون: منظوراً وغير منظور.

ورغم أنه لم تصلنا عن السومريين نظرية متكاملة، توضح لنا آراءهم في كيفية وجود العالم ونشأته، في الآثاريات المكتشفة حتى الآن على الأقل، فإنه

يمكن استخلاص سفر تكوين سومري، من خلال دراسة متأنية للنصوص المتفرقة في أساطيرهم وآدابهم المتعلقة بالخلق، مع أخذنا بالحسبان أن هذه الأساطير ليست بالسذاجة التي تبدو ظاهرة فيها، إنما هي لغة لها خصوصيتها ومفرداتها المتميزة، واصطلاحاتها الخاصة، لتبليغ ماتريد من حقائق مقررة في نظر أصحابها، مع إعتبارنا لمراحل التطور التدريجي التي سار فيها الفكر الإنساني بادئاً من مثل هذه البدايات الأولى.

وكغيرهم من الشعوب، تأمل السومريون في طبيعة الكون وأصله، ونشأته، فظهر لديهم في غضون الألف الثالث قبل الميلاد، طائفة من المفكرين والحكماء حاولوا إشباع هذا الفضول المعرفي، بوضع إجابات مُرضية، للتساؤلات التي أثارها تأملهم في الكون وطبيعة الأشياء، دفعت الآثاريين إلى حد الزعم أن السومريين، وصلوا إلى آراء ومعتقدات ومبادىء، أصبحت أساساً لعقائد شعوب الشرق الأدنى[٣٦]، ودفعت بنا نحن إلى جمع شتاتها من الأساطير والملاحم، لتعطينا سفراً سومرياً للتكوين، يمكن أن تتضح سماته تدريجياً مع بحثنا هذا.

وسعياً وراء هدفنا هذا، نجد أن اللوح الذي يعدد أسماء الآلهة السومرية تقريراً لمبدأ يقول: إنه في البدء كانت (نمو NAMU)، وقد عبّر الخط المسمار عن (نمو) بالمقطع الصوري الذي يعبر عن البحر، ووصفت (نمو) بأنها الأم التي ولدت السماء والأرض، وهو مايصور لنا الوجود قبل التكوين كمحيط أو غمر من الماء الأولى الأزلي، وهو تصور غالب على ثقافات الشعوب القديمة التي اعتقدت بخروج الآلهة من محيط عظيم، كان هو الوجود الأول قبل أن توجد كائنات الطبيعة.

وقد فسرت مدرسة التحليل النفسي انتشار نظرية الميلاد المائي لدى الشعوب القديمة، باعتبارها انعكاساً لذكرى كامنة في لا شعور الإنسان، حول حالة الجنين في الماء الرحمي للأم، سابحاً في بحره الأول، ويذهب

بعض الباحثين مثل (فراس السواح) إلى تفسير ميلاد الأرض والسماء من البحر الأول، بأنه وسط الماء ظهرت جزيرة يابسة على هيئة جبل، قبته السماء وقاعدته الأرض[٣٧] والسماء هي ماعرفناه باسم (آن AN إله ذكر)، والأرض هي ما عرفناها باسم (كي KI أو جي GI إلهة أنثى)، وأنه نتيجة التزاوج بين القبة (آن) والقاعدة (كي) جاء الابن الإلهي في أول أسرة ثالوثية (آن ليل)، والاسم الإلهي (آنليل) ملصق كما أسلفنا من كلمتين (أن = لفظ جلالة + ليل = مادة ما بين السماء والأرض) ذلك الإله الذي شب مبكراً عن طوقه، ففصل أباه عن أمه الأرض، ورفع الأب إلى الأعالي (سماء)، وحط بالأم إلى الأسفل (الأرض، وقد جاء ذلك متفرقاً مشتتاً في عدة أساطير، نقتطع بعضاً مما جاء فيها، مثل أسطورة خلق الفأس (ترجمة كريمر)، التي تستهل بمقطع يقول:

الرب الذي يملك حقا
هو الذي أظهر للعيان
الرب الذي لا يتبدل في أحكامه آنليل
الذي يجلب البذور إلى الأرض ليزرعها
تولّى برعايته فصل السماء عن الأرض
تولّى برعايته فصل الأرض عن السماء[٣٨].

إلا أن (فوزي رشيد) الباحث العراقي في السومريات، يعطينا ترجمة أخرى لذات المقاطع، فيقول:

السيد الإله آنليل
قد جعل كل ما هو نافعاً، يبدو ناصعاً
السيد الذي تقريره للمصير لا يمكن أن يتغير
قد أسرع لفصل السماء عن الأرض
قد أسرع لفصل الأرض عن السماء[٣٩].

وفي ملحمة أخرى، لم يتم التعرف على عنوانها بسبب ما أصابها من تلف

اصطلح على تسميتها (KAR.4–Methos)، جاءت أبيات تقول:

عندما فصلت السماء عن الأرض
بعدما كانتا متصلتين
ظهرت الإلهة الأم
وبعدما وضعت الأرض وثبتت في مكانها
وبعدما وضعت الآلهة قواعد السماء والأرض
وبعدما نظمت الآلهة الجداول والقنوات وثبتت شواطىء دجلة والفرات
جلست الآلهة:
أن
أنليل
أوتو
أنكي (٤٠).

وقبل أن نمضي في استقصاء قصة التكوين السومرية من المتفرقات المتناثرة، نقف هنيهة مع ماأسلفنا ذكره، لنحدد الأمور بشكل أقرب إلى الدقة والوضوح، فنقول:

إن الاجتهاد في تفسير خروج السماء والأرض من البحر الأول (كما ورد عند الباحث سواح)، على أنه خروج لجزيرة أو جبل من الماء الأول، قبته السماء وقاعدته الأرض، هو اجتهاد لا مبرر له، كما أنه لا سند له فيما بين أيدينا من ملاحم وأساطير، وكل ما وصلنا هو إشارات عامة عن اعتقاد بوجود محيط ماء أزلي، ومنه كانت السماء (آن) والأرض (كي)، ومنهما جاء (آنليل) ليفصل بينهما، ولا شيء زيادة على ذلك في هذا الجزء من التكوين السومري، ومن هنا أتصور الفهم الأصح، هو أن هذا المحيط البدئي كان ذكراً وأنثى في ذات الوقت، أي أنهم تصوروه كائناً لديه قدرة التوالد الذاتي، فكان فيه الماء المذكر، والماء المؤنث، وهو ما ستؤيده قصة التكوين الأكادية والبابلية، التي سنفصل القول فيها فيما بعد، بعدما عثر عليها شبه متكاملة،

ويزعم الباحثون أنها أخذت مادتها وتفاصيلها عن التراث السومري، فأكدت القصة الأكادية أن البدأ كان ماء ذكر وماء أنثى، أنجبا سلسلة كيانات الوجود على التوالي[٤١]، وهو ما يدعم فهمنا المبدئي الحالي للتكوين السومري.

ونتيجة لتلاقح هذا الكائن المذكر المؤنث مع ذاته، أنجب كيانا جديداً هو (ليل)، الذي ترجم بمعنى الهواء، وأرى أنه يحمل في اسمه أيضاً معناه الذي حملته كل اللغات السامية بما فيها العربية، بمعنى الليل أو العتمة وبإضافة اسم الجلالة السومري (آن) يصبح (آنليل AN-LIL)، وفي اللغات السامية بدءاً من الأكاديين الذين حلوا محل السومريين في الرافدين، يحلّ اسم الجلالة السامي (إيل أو إل EL) محل اسم الجلالة السومري (آن)، فيصبح (آنليل) هو (الليل EL-LIL)[٤٢].

ويساعد على فهمنا هذا، أن (نانا NANA) إله الليل وهو القمر متولد أصلاً في المفاهيم الرافدية من الهواء، وتؤكد الأساطير الرافدية أن القمر ابن (آنليل)، ومن هنا نعتقد أن الهواء والليل حملا معنى واحداً لدى السومريين.

وهكذا جاء الهواء أو الليل أو العتمة أو الظلمة (آنليل)، ليفصل في الغمر أو البحر الأول (نمو) بين مياه ومياه، فرفع المياه الذكر إلى الأعلى لتصبح سماء وحط بالمياه الأنثى إلى الأسفل لتصبح أرضاً وفي ذلك مايفسر لنا اعتبار الإله (آنكي ANKI إلهاً للماء، كما يلتقي مع تصور الأقدمين للسماء كبحر علوي، تهطل منه الأمطار والسيول، عندما تفتح أبوابه بماء منهمر.

وبذلك تمكن (آنليل) من أن يحدد في الماء الأول بين ماء ذكر وماء أنثى، ويفصلهما عن بعضهما حدد لكل منهما هويته وذاتيته وشخصيته المستقلة، وهو ما يمكن فهمه من ترجمة كريمر السالفة (هو الذي أظهر للعيان)، والتي حاول (فوزي رشيد) أن يجعلها أوضح في ترجمته لنفس النص (قد جعل كل ما هو نافع يبدو ناصعاً)، أي واضحاً ومحدداً ومستقلاً بشخصه، وأتصور أنه حتى (يظهر للعيان) ويجعل كل ما هو نافع (يبدو ناصعاً)، كان لابد من عمل آخر

هو أن يحيل الظلمة التي على وجه الغمر البدائي إلى ضياء، يظهر للعيان، ويجعل المرئيات ناصعة واضحة، لذلك جاء في زعم (كريمر) أو (آنليل) هو الذي جاء بالإله الشمس (أوتو AUTO)، ولعل أوضح تأييد لفهمنا هذا ماسجلته نهاية المقاطع التي أوردناها من أسطورة (KAR.4–METHOS)، أقصد:

وبعد ماوضعت الآلهة قواعد السماء والأرض
جلست الآلهة:
أن
أنليل
أوتو
انكي

ويظهر هنا (أوتو) الشمس، مقروناً بظهور الكيانات الكبرى في الوجود، ويأتينا الإله (آنكي) إله الماء، بديلاً عن (كي) الأرض ضمن الأربعة الخالقة التي عرفناها، والتي اختفت منها في هذا النص الإلهة (كي)، مما يوحي بما زعمناه، حول حسبانهم الأرض كانت أصلاً مياه، انفصلت عنها مياه السماء، ثم وبعد عناء عملية الخلق الكبرى تلك، جلست الآلهة على عروشها، أو استراحت، أو استوت.

التكوين الكائني:

مع أسطورة (جلجامش وإنكيدو والعالم السفلي) نتابع بحثنا عن حقائق سفر التكوين السومري، فيوقفنا مقطع واضح في مقدمتها يقول:

بعد أن ابتعدت السماء عن الأرض
بعد أن انفصلت الأرض عن السماء
بعد أن عين اسم الإنسان
بعد أن أصبحت السماء بحوزة (آن)
بعد أن أصبحت الأرض بحوزة (آنليل)[٤٣].

ونفهم من ذلك، أنه بعدما انتهى (آنليل) من فصل السماء عن الأرض وبعد ما نظم كونه، وبعدما تقرر خلق البشر على الأرض (بعد أن عين اسم الإنسان)، اتحد (آنليل) بأمه الأرض، بعد أن أزاح أباه، وهو ما يلتقي مع فروض مدرسة التحليل النفسي، في رغبة الابن إزاحة الأب والاستيلاء على الأم، خاصة أن أفعال (آنليل) الخالقة تتوقف عند هذا الحد، ولا يظهر له دور في عملية خلق الإنسان، فيما تحت أيدينا من نصوص، كما لو كان تحقيقاً لرغبة موقوفة التحقيق والنتيجة، فلا هو ينجب من أمه الأرض، ولا هو يعاشرها أصلاً، (كما لو كان تحقيقاً لفكرة التابو والتحريم ضد الرغبة)،

إضافة إلى أن النص (بعد أن أصبحت الأرض بحوزة آنليل) يلتقي مع ما سبق وافترضناه في اقتران ظهور (آنليل) على سائر الآلهة، أو على الأب (آن)، ببداية سلطة الحاكم الكاهن في المشترك المعبدي، (بعد أن أصبحت الأرض بحوزة آنليل).

وفيما يتعلق بخلق الإنسان هناك أسطورة أخرى تقول: إن الأرض أنجبت الزرع والحيوان والإنسان، خرجوا من طينها كالدود والحشيش، ثم تُصَور هؤلاء البشر تصويراً يكاد يعطيها مشروعية علمية فتقول:

البشر الأول لم يعرفوا أكل الخبز بعد
يسيروا على أيديهم وأرجلهم
كالخراف يعلفون الحشائش
ومن القنوات كانوا يشربون الماء
آنذاك
في المكان الذي كانت فيه الآلهة في معبدهم
التل المقدس:... المعبد...
المكان الذي تأكل فيه الآلهة الخبز(٤٤).

(فهل كان هذا النص تسجيلاً لقصة بشر تطوروا وسط بشر ظلوا على حالتهم الحيوانية؟ ربما).

لكن هناك نص آخر، يروي قصة أخرى لخلق الإنسان وجد منقوشاً على لوحين مكررين لنص واحد، جاء أحدهما من مدينة (نفر) وهو حالياً في جامعة بنسلفانيا، والآخر محفوظ في متحف اللوفر، يقول:

الأم الأولى نمو تأتي إلى آنكي
(اتفقنا على ترجمة آنكي: السائل المخصب أيسو)
وتخاطبه: قم يابني من فراشك

واعمل ماهو حكيم لائق
اصنع عبيداً للآلهة
وعساهم أن يضاعفوا من عددهم
فتدبر آنكي الأمر وقال لأمه نمو:
يا أماه: إن المخلوق الذي نطقت باسمه
موجود
فاربطي عليه صورة الآلهة
اعجني لب الطين الموجود فوق مياه العمق

(اتفقنا أن ماء العمق آبسو السائل المخصب).

واجعلي الصانعين المهرة يكثفون الطين
وعليك أنت أن توجدي له الأعضاء والجوارح
وستعمل ننماه (الأرض الأم أو السيدة الأم)
الأم الإلهة
من فوق يديك
وستقوم بجانبك إلهة الولادة
(يبدو أنها ننماه ذاتها)
وسترابط ننماه عليه صورة الآلهة
إنه الإنسان[٤٥].

ونفهم من هذا النص أن الذي يجب أن ينسب إليه فعل خلق الإنسان هو الإله (آنكي)، بوصفه سائل الخصب أو مني (آن) مشخصاً في إله وأنه لم يفعل أكثر من تلقيح طين الأرض (اعجني لب الطين الموجود فوق مياه العمق) وأفضل ترجمتها (اعجني له الطين وسيكون فوقه آبسو المني) خاصة أنه رغم طلب الأم الإلهة من (آنكي) القيام بخلق الإنسان، لا نجد له دوراً سوى ذلك، لأن الأم الأرض (ننماه)، الوالدة (ننتو)، هي التي عملت الطين (وستعمل ننماه الأم الإلهة من فوق يديك)، ثم أنها هي التي صورته في هيئة الإنسان على شبه الآلهة (فاربطي عليه صورة الآلهة) ومن هنا خلقت الآلهة

الإنسان على شبهها ومثالها، ويعقب (كريمر)، على ترجمته للنص السالف بقوله: «إن المفكرين السومريين. . اعتقدوا اعتقاداً جازماً بأن الإنسان صنع من طين، وأنه خلق من أجل غرض واحد فقط، ذلك هو أن يعبد الآلهة ويخدمها، بتزويدها بالطعام والشراب والمسكن، ليتوافر لها وقت الفراغ لأعمالها الإلهية»[٤٦].

ولنلاحظ هنا كيف استطاع هؤلاء المفكرين، وهم الكهان، وهم الحاكمون، أن يحققوا فائض إنتاج ملائم بين أيديهم، مقابل تفرغهم لإدارة المشترك المعبدي، والاتصال بالآلهة، باعتبار ذلك مسألة قدسية تتمثل في تزويد الآلهة بالطعام والشراب والمسكن، أو بالقرابين تدخل من فائض إنتاج الأفراد إلى ملكية خاصة بالآلهة والكهنة، إضافة إلى المسكن الفاخر للآلهة (المعبد)، الذي كان في واقعه قصراً سكنياً وإدارياً للكهنة.

وقد حاول (بوتيرو) تعليل إصرار أهل سومر على فكرة خلق الإنسان من مادة الطين بالذات، بقوله: «إن هذا التمثيل والصنع من الطين لأجسام البشر الأوائل، يعتبر صورة طبيعية جداً، في بلد يلعب فيه الفخار دوراً كبيراً، حيث نجد صنع التماثيل من الطين الفخاري بشكل إنسان، عملاً منتشراً بصورة واسعة»[٤٧].

أما نحن فنعتقد ببساطة، أنه كان يكفي للسومري أن يلاحظ الطين وما ينشأ فيه من حياة (فطر، نبات، ديدان. . . الخ) حتى تنشأ لديه قناعة أن هذا هو مصدر ومنشأ الحياة عموماً، ولما لم يكن لديه شاهد عياني على خروج إنسان من الطين فجأة دفعة واحدة، كالزرع أو الدود، فقد اعتقد أن ذلك قد حدث بنوع من التشكيل الفخاري لأجداده الأوائل.

وبالبحث عن التسمية التي أطلقها السومريون على هذا المخلوق الطيني نجد الإسم (إنسي ANZI) وهي في تحليلنا تعني مثيل أو شبيه الإله (آن)، باعتبار (سي ZI) تعني الشبيه أو الحقيقي، ويقول (حسن ظاظا) إن الإسم

(آنسي) قد تخلف في كل اللغات السامية للدلالة على الإنسان، وأن مؤنثه كان يتأتى بقلب السين إلى (ش) فيصبح (آنشي)، أو إلى (ت) فيصبح (أنتي)، أو (ث) فيصبح (أنثى) كما في العربية وجمعها نساء ونسوة[٤٨]، لكن (كريمر) يشير إلى أن الإسم (إنسي) كان اللقب الذي يعرف به ملوك المدن السومرية[٤٩]، ونعتقد أنه لا خلاف، فالأمر راجع إلى تعظيم الملك باعتباره أباً أولاً للمشترك المديني الذي كانت تدين فيه كل عشيرة بالعبادة لأبيها، الذي تمثل بتجميع العشائر في مدينة في شخص الملك، فأصبح هو أب الجميع الأول (إنسي) وكان يلقب أيضاً باللقب (لوجل)[٥٠]، أي الرجل العظيم، أو ذو الجلال، ونظنها الأصل في الكلمة الدالة على مذكر الإنسان (رجل).

لكنا نعتقد أن مؤنث الكلمة (إنسي) السومرية، ليس (أُنثى) أو (أُنتي)، لأن (إنسي) مركبة من ملصقين هما (آن = الإله أو السيد + سي)، ربما أن مؤنث (آن = سيد) هو (نن ـ سيدة)، فإن مؤنث (إنسي) يكون (نن سي) أو (ننسي)، وبحسبان ما أشار إليه (ظاظا) يسهل أن تتحول (ننسي) إلى (ننشي) و(ننتي) بشكل خاص، وقد ورد الاسم (ننتي) في أسطورة ترجمها (كريمر)، مما يؤكد استخلاصنا هذا، وقد جاء هذا الإسم في أسطورة تقول إن (نن تي) إلهة خُلقت أصلاً لغرض خاص جداً، هو تمريض وعلاج الإله (آنكي) عندما أصابه المرض في واحد من أضلاعه، والضلع بالسومرية هو (تي)، لذلك سميت الإلهة الممرضة (نن تي) أي (سيدة الضلع)، ويعقب (كريمر) على ذلك تعقيباً يكاد يوعز لنا فيه بحل أُحجية خلق حواء من ضلع آدم، التي وردت في الديانات السامية، حتى يكاد يقنعنا أن نصوص سِفر التكوين في التوراة، قد أخذت ماجاء في الأسطورة السومرية بشكل شائه، بعد مرور زمان نُسي معه الأصل، ولم يبقَ سوى سيدة الضلع أو السيدة الضلع، فخالـوا الأنثى الأولى مخلوقة من ضلع الإنسان الأول، وسقط كاتب هذا الجزء من التوراة، في الشرك السومري، ففسر حواء التي تدل على الأنثى

الأولى في اللغات السامية بأنها مأخوذة من «تلك السيدة التي تحيي أي التي تسبب الحياة»[٥١]. وهو ماتعنيه أيضاً الكلمة (تي)، لأن (تي) تدل على الضلع عندما تكون إسماً، لكنها كفعل تعني (أحيا)، أو جعله (يحيا) ويصبح إسم (نن تي) أو (ننتي)، السيدة التي تحيي[٥٢].

وأصر (كريمر) على إفهامنا أن التوراة قد أحدثت خلطاً ناتجاً عن سوء فهم للتراث السومري، بين (ننتي) كسيدة للضلع مهمتها شفاء ضلع (آنكي)، وبين (ننتي) بمعنى السيدة التي تحيي، لأن (تي) تعني (أحيا).

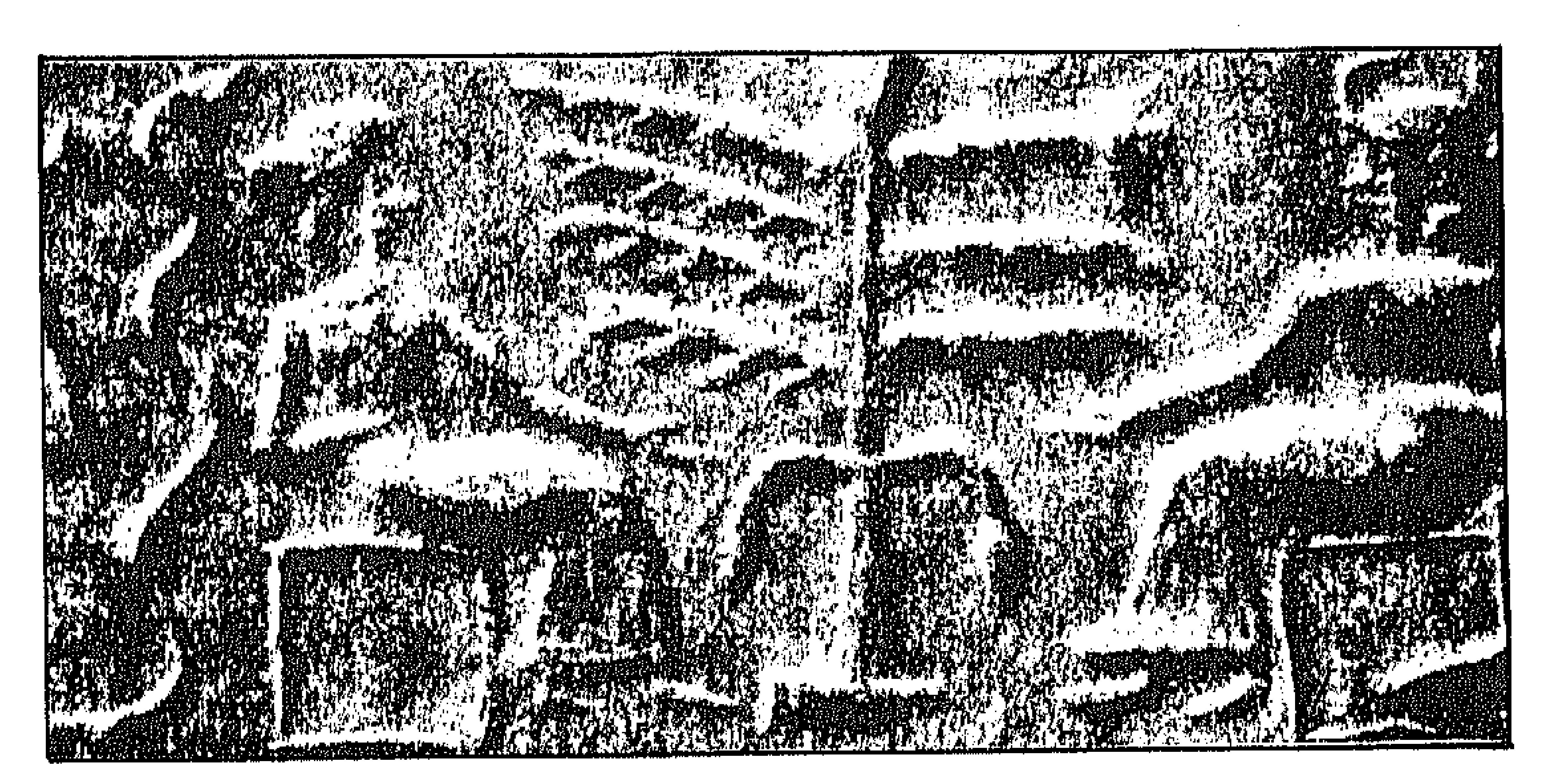
ومع حفظنا لثقل (كريمر) وتقديرنا له كمصدر غزير للسومريات، فنحن ننحو منحى آخر في تصورنا لما حدث، فإذا افترضنا أنه قد حدث خلط فعلاً، فقد كان في الكلمة السامية (حواء) من الفعل السامي (أحيا) وهو فعل له اشتقاقات عدة، منها (حوا) أي استدار حول الشيء واحتواه، كحمل الأم لطفلها في استدارة بطنها، و(حيا) وهو الفرج ومن هنا يصبح الفعل (أحيا)، هو إخراج الحياة المحوية في البطن من الحيا وبعد أن تعاملنا مع الإسم (إن تي) كمؤنث لـ (آنسي) وانتهينا إلى وجود تصحيحه إلى (نن تي)، فإن قمنا بالاشتقاق منها على الطريقة السامية في (حواء) من (حيا)، فستصبح (ننتي) هي (ننتو)، وهو الاسم الذي عرفناه لإلهة الولادة السومرية وترجمته الحرفية (السيدة التي تلد).

أما لو افترضنا أنه لم يحدث هذا الخلط في التوراة، فسيكون هناك خطأ ما في ترجمة الأسطورة الخاصة بخلق ممرضة ضلع (آنكي)، ونأسف لأن أصولها ليست بين أيدينا، وفي مثل هذه الحالة كان يمكننا افتراض أن (ننتي) كانت أنثى خلقت من ضلع الذكر، وليكن (آنكي) كما قال (كريمر) وليكن (آنسي)، بالفرض، وأنه كان يعاني من مرض في ضلعه، كان انتزاعه منه كفيلاً بشفائه، وعليه لا تكون (ننتي) إلهة وليست أنثى بشرية، فهو ما لا يتناقض مع قوانين التطور الفكري والاجتماعي، التي عبدت الأسلاف كآلهة

ذكور وإناث.

ولايفوتنا أن نشير إلى اختصاص الأم الأولى بلقب آخر في السومرية هو (مونوس)، التي هي فيما نظن الأصل في الكلمة السامية (مومِوس) التي انحدرت إلى العربية (مومس)، للدلالة على المرأة التي لا تعرف رجلاً واحداً، كما لو كان في اللغة خاصية الحفريات، فاحتفظت لنا بكلمة ذات معنى حفري سحيق، لتشير إلى عصر كانت فيه المرأة مشاعاً في المجتمع الأمومي أو النظام الغابر.

لكن أغرب ما في علاقة الفكر الديني السومري بالفكر الديني السامي، ولعله ليس أغرب إنما أقرب إلى طبيعة الأمور، هو ذلك الختم الأسطواني الذي كشف عنه مؤخراً، ويصور ذكراً وأنثى، بينهما نخلة، وخلف الأنثى تدلت حية، رأسها بجوار رأس الأنثى، بينما تمد هذه الأنثى يدها في شكل دعوة للذكر الجالس قبالتها، ليتناول من ثمار النخلة ولنتذكر الآن الارتباط اللغوي بين



ختم اسطواني سومري، ينتمي إلى حوالي منتصف الألف الثالث ق.م. كائن حالياً بالمتحف البريطاني بلندن، يمثل أفعى تنتصب خلف امرأة تمد يدها في شكل دعوة للرجل الجالس أمامها لتناول ثمرة من شجرة أو نخلة بينهما. ولعله من الواضح تماماً أن هذا النقش الذي سبق تدوين الكتاب المقدس بقرون طويلة يمثل قصة إيعاز الحية للذكر والأنثى الاوائل بأكل الثمرة المحرمة.

الحيـة ، وبين حيـا الأنثى (فرجهـا) ، وبين الحيـاة (فالأنثى مصـدر للمـواليـد ، للحياة) ، وبين التسميـة (حواء) ويبـدو أن هذا الارتبـاط المتوارث ، كـان نـاتـج تصور الأقدمين أن الحية دائمة التجدد ، ودائمة الحياة ، عن طريق مشاهدتهم لها تنسلخ من جلودها العتيقة لتخرج بجلود جديدة زاهية ، في حـركة تشبـه خروج الجنين من حيا الأم ، ولعل ذلك يفسر لنـا الارتباط العجيب في العقـل القديم ، بـين المرأة كمصـدر للحياة بـاستمـرار ، وبـين الحيـة التي تتجـدد وتـولـد دائـماً بـانسلاخهـا من جلدها ، وبـين تصور كليهـما (المرأة ـ الحيـة) كمصـدر للخبث والأذى؟! .

الخطيئـــة والســـقوط :

رغم أنه كان للآلهة معابدها ، التي كانت في الوقت نفسه مسكناً لها ، ومركزاً إدارياً للمشترك المعبدي ، ومحل إقامة لكبير الكهنة وبطانته ، أطلق عليها اسم (إي E) ، فإن هذه المعابد لم تكن مقاراً دائمة للآلهة ، قدر ما كانت بقاعاً أرضية مقدسة ، تلتقي فيها الآلهة بكهنتها ، لتفسير النذر أو قبول القرابين ، أو لإصدار قرارات تتعلق بأمور مستعجلة ، بينما كان مقرها الدائم كما جاء في الأساطير هو جبل السماء والأرض ، أما أين هذاالجبل؟ فهو مالا تجيب عليه المدونات الموجودة بشكل واضح ، لكن يمكن الاستنتاج من مجموعة وثائق وأساطير ، أنه كان في مكان يدعى (دلمون DILMOUN) حيث وردت كمكان تجري فيه أحداث عظام ، بين الآلهة السومرية ، فظهرت (دلمون) كما لو كانت مسكناً دائماً للآلهة ، وفي مجموعة أخرى من الأساطير تبدو (دلمون) كما لو كانت مسكناً وموطناً للإله خالق البشر (آنكي) أو (آنسي) ، إذا اعتبرناه أبو البشر الأول ، وأنه أنجب هناك عدداً من الآلهة[٥٣]

ونتفرد نحن في بحثنا هذا بزعم يدعمه ما تحت أيدينا من وثائق ، هو أن

(دلمون) كانت المكان الذي قامت فيه الآلهة بخلق أول بشر على الأرض، فقد وصفت هذه المآثر (دلمون) بأنها:

الأرض دلمون هي الموطن الطاهر
الأرض دلمون هي المحل النظيف
الأرض دلمون هي الأرض المشرقة
هو ذلك الذي اضطجع وحده في دلمون
المحل الذي اضطجع فيه أنكي مع زوجته[54]

* * *

في دلمون، لا ينعق الغراب الأسود..
ولا يصيح طائر الأندو (الحدأة) ولا يصرخ
ولا يفترس الأسد
والذئب لا يفترس الحمل
ولم يعرفوا الكلب المتوحش الذي يفترس الجداء
ولم يعرفوا (خرم بالنص) الذي يفترس الغلة
ولم توجد الأرملة
والطير في الأعالي (خرم بالنص)..
والحمامة لا يحنى رأسها
وما من أرمد يشتكي ويقول عيني مريضة
ولا مصدوع يقول في رأسي مرض الصداع[55]
وامرأة دلمون العجوز لا تشكو من الشيخوخة
ورجل دلمون الشيخ لا يتبرم من كبر السن[56].

أما السر في كون (دلمون)، أخذت شكل المدينة السعيدة الفاضلة فيرجع إلى حلول الإله (إنكي) فيها[57]، وتقول أسطورة (إنكي وننهور ساج ENKI & NIN HURSAG) التي بدأت بوصف (دلمون) كموطن طاهر نظيف مشرق، يسوده السلام والأمن والطمأنينة: إن الإله (إنكي) حل فيها، وأمر الإله (أوتو) أن يملأها بالماء العذب، لكونها كانت تفتقده، وعند ذلك أصبحت:

مدينتها تشرب الماء الوفير
دلمون تشرب ماء الرخاء
آبارها ذات الماء المر
انظر
تراها أصبحت مياهها عذبة
حقولها ومزارعها أنتجت الغلة والقمح
مدينتها، انظر، تراها
وقد أصبحت داراً للشواطىء
ومرسى للأرض[٥٨].

لكن حتى يتأتى لهذه الأرض زرع، كان لابد من إله للزرع والنبات جاءت عبر عدة عمليات خلق، فأولاً يقوم الإله (إنكي) بوصفه المخصب بتخصيب الإله (ننهور ساج)، فتحمل لمدة تسعة أيام، وتضع إلهة الزرع[٥٩]، وأتصور إله النبات هذه هي حبة القمح، أو أول حبة قمح فاسمها (نن شال)، و(شال) كلمة تدل على الفرج الأنثوي كمصدر للحياة فهي السيدة الفرج أو الإلهة الفرج، مع ملاحظة التشابه بين حبة القمح المفلوقة وبين الفرج الأنثوي، وما قد يخطر على بال القدماء، عندما يشاهدون فلقة حبة القمح تخرج حياة جديدة، بعد ريها بماء الخصب كما ينفلق الفرج الأنثوي عن ميلاد جديد بعد ريه بماء الذكر.

إلا أن الأسطورة تشير إلى خلق ثمان نباتات أخرى خلقتها الأم (ننهور ساج) فأكلها (إنكي)، فغضبت عليه (ننهور ساج) غضباً شديداً، حتى أنها قامت تصب عليه اللعنات قائلة: «لن انظر إليك بعين الحياة حتى تموت»، وهنا أخذ المرض يشتد بـ(أنكي) وبدأ يتدهور ويذبل[٦٠].

ولنقف الآن قليلاً مع ما جاء في هذه الأسطورة، التي أراها أول تسجيل حقيقي اكتشف حتى الآن لقصة الخطيئة الأولى!! فنتساءل: لماذا غضبت (ننهور ساج) كل هذا الغضب على (إنكي) لو لم تكن قد أنذرته سلفاً،

وحرمت عليه هذه الثمار قبلاً، وأعلمته بذلك إعلاماً واضحاً؟ ومع ملاحظة أن النص به خروم وتشوهات كثيرة أدت لفقد كثير من الأبيات والمضامين! إذن من المنطقي أن يكون هناك علم مسبق أحيط به (إنكي) برغبة (ننهور ساج) عدم المساس بالنباتات الثمانية، وعندما عصى الأمر كان عقابه الموت «لن انظر إليك بعين الحياة حتى تموت» ويبقى التساؤل: كيف يمكن لإله مفترض فيه الخلود، أن يمرض ويموت؟! من هنا نفهم أن الأسطورة اعتبرت (إنكي) الأب الأول، وطبيعي أن يتصف بالألوهية بحسبان عبادة الأب الأول، بخاصة ما جاء في بداية الأسطورة بعد تقريظ دلمون كأرض طهور نظيفة، وفجأة وبلا مقدمات تقول: «هو ذلك الذي اضجع وحده في دلمون»، إنها صورة تلقي بنا في مرآة الزمان الآتي، عند ظهور التوراة وما قالته عن أب للبشر يعيش وحيداً في مكان يسمى الجنة، ثم تقول أسطورتنا عن (دلمون) «إنها المحل الذي اضجع فيه إنكي مع زوجته» فمن كانت هذه الزوجة؟

هل قصدت الأسطورة بالزوجة الإلهة (ننهور ساج)؟ ربما: لكن الأحداث التي تلت مرض (إنكي) تشير إلى منحى آخر، رغم عدم النص عليه في نصنا هذا المهترىء، لأن مرض (إنكي) كان في واحد من أضلاعه، واتفقنا أن شفاءه تم بنزع الضلع المريض ليصبح (نن تي) سيدة الضلع، فتحول (إنكي) إلى إله معرض للموت بسبب خطيئته (وهو ما يتعارض مع صفة الخلود الإلهية) إلى ذكر وأنثى معاً، فهو ذكر خلقت من ضلعه أنثى ليستبدل الخلود الفردي الذاتي بخلود للنوع عبر تناسل الذكر والأنثى، وعليه تتضح عدة حقائق هي:

* كان للآلهة دار طهارة وسلام للمقام هي (دلمون).
* في دلمون حدثت أول عملية خلق للنبات عن طريق تخصيب (إنكي) لننهور ساج لتنجب إلهة النبات.

* (ننهور ساج) تخلق بمفردها ثمانية نباتات محرمة.

* يأكل (إنكي) النبات المحرم فتحيق به اللعنة الربانية فيمرض بضلعه ويحتضر، لولا نزع هذا الضلع المريض منه، وتخلق منه سيدة الضلع أولى إناث البشرية.

* يفقد (إنكي) بذلك ألوهيته كسائل مخصب كوني، ويتحول خلوده الإلهي إلى خلود عبر التناسل، وهنا في رأيي تكمن العلاقة بين (إنكي) وبين (إنسي) فتحول (إنكي) إلى (إنسي) مهمته التخصيب المستمر لسيدة الضلع (نن تي) أو (نن تو) أو (سيدة الولادة) أو (ماما) أو (مامي) أو (أماه).

ولا يبقى لكي تترتب المسألة بشكل أفضل سوى أن نستكملها بالختم الأسطواني الذي صور ذكراً وأنثى يأكلان من ثمار نخلة، بإيعاز من الحية (والحية رمز جنسي) لنسد به الثغرات الناقصة في النص، ليصبح أكل الثمرة المحرمة هو رمز لممارسة الجنس مع أخرى غير (ننهور ساج)، مما استوجب غضبها ولعنتها، ولم تكن هذه الأخرى سوى (نن تي) أو (ننتو) أو (أنثي) أو الأنثى الأم الوالدة الأولى، بينما أصبح (إنكي) هو (إنسي) صاحب المني المقدس، بينما تحولت ثمار النخلة (التمر) (وهي رمز نن تي شافية المرض التي مارس معها الجنس إنكي، ولنلحظ نواة التمر المفلوقة وحبة القمح المفلوقة)، لتصبح ثمراً مقدساً وشافياً ومثيراً للغلمة والشهوة، وسبباً لمزيد من مني الرجل وخصبه ـ حتى اليوم ـ بل نعتقد أن كلمة (تمر) لُغَةً، هي التي أصبحت بعد ذلك (ثمر)، لتدل ـ على وجه الإطلاق ـ على جميع أنواع الثمار بمعنى أنها كانت الأصل الأول للثمر عموماً وللخصب عموماً، ومثلها القمح وكل حب مفلوق، (ولنلحظ العلاقة اللغوية بين الحَبْ والحُبْ)، فكان التمر والحبوب الثمار الأم الأولى في (دلمون) إلى جوار الأب الأول (إنكي) أو (إنسي) والأم الأولى (نن تي) أو (أنثى).

وبما أن (دلمون) يشار إليها في الأساطير السومرية كمركز إلهي خالد

يخالف دنيا السومريين في الرافدين، فقد بات واضحاً أن (إنكي) الإله الذي فقد الخلود، (ونن تي) زوجته، أو الإنسي والأنثى كأبوين للبشر، قد غادرا هذا المقر الإلهي من زمان بعيد، ليعيشا عيشة إنسانية، بينما ظلت (دلمون) موطن الآلهة الخالدة في الأساطير.

العالـم التحـت أرضـي:

إذا كان (إنكي) إلهاً فقد الخلود وأصبح (إنسي)، فهل كان ممكناً في العقائد السومرية أن يتحول الإنسان إلى إله؟ أو بصيغة أخرى، هل كان ممكناً في الإعتقاد السومري أن يحصل البشر على الخلود الدائم؟...

يقول الباحثون إنه لم يخطر قط للسومريين، ولا للشعوب السامية في الرافدين أو باقي الهلال الخصيب، حتى قبل زمن المسيح بقليل، أنه يمكن للإنسان أن يخلد، وقد قررت ملحمة جلجامش ذلك صراحة بتأكيدها: أنه «عندما خلقت الآلهة الإنسان، قدرت عليه الموت، واحتفظت لنفسها بالخلود»[٦١]، وهنا الفارق بين الإنسان والإله، فالإله خالد والبشر فاني إلا أن هناك قبساً إلهياً ظل في البشرية، هو المني الذكري والفرج الانثوي، الذي يعود إلى الأب الأول (إنكي) والأم الأولى (ننتي)، أول رعيل إلهي تحول إلى بشر، فجمع اللاهوت مع الناسوت، أو الألوهية مع البشرية.

وقد عبر السومريون عن قناعتهم باستحالة خلود البشر في مجموعة أخرى من الأساطير، منها أسطورة (جلجامش وأرض الأحياء) وتقول: إن (جلجامش GELGAMISH) كان يبحث عن نبات الحياة، فالخلود هنا مصدره مادي في شكل مادة إذا أكلها الفاني خلد، وهي ذات الفكرة التي قالت بها التوراة، حول شجرة الحياة في الجنة (التكوين ٢ ـ ٩ : ٢٢) وكي يحصل جلجامش على ثمرة الخلود، رحل إلى (دلمون) بالذات، فهي مقر الآلهة الخالدة، ليبحث هناك عن بغيته وفعلاً وجد الشجرة، واقتطف من ثمرها

السحري، وعند عودته:

رأى جلجامش بركة ماء
نزل فيها، استحم بمائها
تشممت الحية رائحة النبتة
تسللت، صعدت من الماء
خطفتها
وفيما هي عائدة
تجدد جلدها
وهنا جلس جلجامش وبكى[٦٢].

حقيقة إن النص بليغ الدلالة، يلخص ما ذهبنا إليه، ويؤكده بوفاء واضح جلي، فها هي شجرة الخلد في (دلمون) مسكن الآلهة، وموطن آباء البشر الأوائل، تتعرض مرة أخرى لمحاولة السطو عليها، لكن الحية، والحية بالذات دون جميع الكائنات، رمز الحيا (الفرج، الجنس) تتسلل مرة ثانية لتسلب الساعي إلى الخلد ثمرة مسعاه، لتنعم به دونه، وتخلد بانسلاخها من جلدها كلما آن أوان موتها، ولا يكتفي السومري بهذه الرمزية الواضحة إنما يزيدنا إيضاحاً، فيفقد (جلجامش) الخلود في بئر أو بركة ماء والبئر أو البركة باستدارتها رمز واضح آخر للفرج، إنها قصة تدفعنا ـ أو تكاد ـ للظن أن الوعي والشعور كان مسألة مبكرة جداً في تاريخ نشوء الحياة على الأرض فاحتفظ الكائن إلى اليوم في عقله بكافة مراحل تطوره الأولى، منذ كان كياناً دقيقاً، يستمر في الوجود عبر عمليات الانقسام الذاتي، حتى تخصصت فيه أعضاء الذكورة، وأخرى للأنوثة، ثم الانتقال إلى انفصال الذكر عن الأنثى (الضلع عن إنكي) لينتهي عهد الخلود الفردي ليبدأ عهد الخلود الجماعي للنوع، عبر التناسل، الذي استدعى التجمع الإجباري والتجاور لممارسة الجنس، حفاظاً على النوع واستمراره، مما أدى بالضرورة إلى نشوء التجمع الإنساني.

ولعلي لا أغالي إن قلت: إن السومري القديم، حاول جاهداً ـ بلغته البدائية ـ أن يبلغنا بما بقي في اللاشعور الجمعي من ذكريات سحيقة في القدم فوضع أساطير أخرى مثل أسطورة معراج (آدابا ADABA) إلى السماء، حيث دعاه هناك إله السماء وأكرم وفادته، فدعاه إلى مائدة تحوي طعام الخلد لكن (إنكي) كان أسبق من إله السماء، فأوعز إلى (آدابا) ألا يتناول منها شيئاً فيرفض (آدابا) الوليمة الإلهية، ويخسر الخلد(٦٣)، فهل بعد هذا بلاغة في محاولة السومريين تبليغنا.

فقط، إنسان واحد فقط، رفعه مجد عمله إلى رتبة الألوهية، ونال الخلد وحتى يناله فعلاً تم نقله إلى (دلمون) دار الخلود، ذاك هو بطل أسطورة الطوفان، الذي أنقذ بذرة الحياة على الأرض، في فلك أسطوري(٦٤)، فكان أن مُنح الحياة الخالدة، أو نصيباً:

زيو سودا الملك
سجد أمام آن وآنليل
فمنحاه حياة كحياة الآلهة
وجاءا إليه بأنفاس خالدة
كأنفاس الآلهة
وبأمر آن وآنليل
أمام الملك زيو سودرا
الذي يحفظ أسماء (خرم بالنص)
والبشر
في جبل العبور، جبل (دلمون)(٦٥)
حيث تطلع الشمس

ويبدو أن بطل الطوفان (زيوسودرا ZIUSUDRA) كان شخصاً حقيقياً، استطاع أن ينقذ في قاربه إبان كارثة فيضان عاتي، أفراد أسرته وآخرين، فكان مجد عمله كفيلاً برفعه إلى رتبة الألوهية وكانت الأعمال الفدائية والمجيدة

- فيما نرى - هي السبب الأساسي في تأليه الوالدين والأسلاف، في غابر الأزمان، وسبق أن أفضنا في التدليل على وجهة نظرنا هذه، في اثنين من أهم أعمالنا المنشورة، الأول كان بعنوان (الأضاحي والقرابين، الجذور الاجتماعية)، والثاني (القمر الأب أو الضلع الأكبر في الثالوث)[٦٦].

ومن ثم اكتسب (زيو سودرا) الألوهية والخلود، بعد أن خسر حياته فيما يبدو إبان محاولة إنقاذ بنيه، وقد أخذ الساميون بهذه الأسطورة لكن البطل حمل اسم (أوتنابشتيم UTNABESHTEM) و(إثرا خاسيس ETHRA KHASIS) و(تجنوح TAGNOAH)، لكن الأسطورة المصاغة لبطولة (تجنوح)، دخلتها عناصر من قصة الخلق، فقالت إن (تجنوح) لم يستمر في هذه الحياة الخالدة، بعد أن خسرها، لما أكل من فاكهة محرمة[٦٧]، ولنلاحظ القرب الزماني لأسطورة (تجنوح) من وقت ظهور التوراة، حيث اختصر فيها (تجنوح) إلى (نوح)، الذي تقول التوراة إنه عاش عمراً مديداً بلغ حوالي تسعمائة وخمسين عاماً، وهو يكاد يكون ترديداً لمعنى الخلد الألفي، الذي ينقطع فجأة بالأكل من الثمرة المحرمة في القصة الأصلية (تجنوح) (تكوين ٦ - ٩).

وقد استند الباحثون إلى مثل هذه الأساطير ليقطعوا بأن السومري القديم لم يعتقد في حياة خالدة من بعد الموت، وإن الساميين قد تابعوهم في ذلك، وهذا في رأينا فهم خاطىء للمسألة من أساسها، لأن الخلود الذي قصدته تلك الأساطير كان مطلباً لديمومة الحياة في هذه الدنيا، ورفض السومريين الاعتقاد في أن إمكانية تحقق ذلك أمر منطقي وعقلاني، رغم رغبتهم الواضحة فيه، أما الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت في عالم آخر، فهو أمر مقرر لدى السومريين ولا يجادل بشأنه مكابر، ولا يقبل شكاً أو جدلاً لكنه لم يأخذ خطه التطوري الذي أخذه عند المصريين، فلم يعتقد السومريون بعودة الموتى في شكل بعث جديد ولا في ثواب أو عقاب، وكل ما في الأمر أن الموتى يرحلون جميعاً إلى عالم آخر، وهو في ملحمة (جلجامش): «البيت الذي لا

يعود داخله»[٦٨]، في عالم تحت أرضي، خالد، لكن ليس فيه ما يبهج النفس.

وأطلق السومريون على عالمهم التحت أرضي كلمة (كور KUR)، وكانت هذه الكلمة في الأصل، تدل على وحش تخيلوا مسكنه تحت سطح الأرض، اختطف إلهة أنثى أرضية هي (إيرشكيجال)، وأخذها لتعيش معه كزوجة في العالم التحت أرضي، وصارا هناك سيدان للعالم التحت أرضي الرهيب[٦٩].

وأتصور أن الكلمة (كور) تحولت من دلالة على الوحش السفلي، إلى الدلالة على العالم الأسفل عموماً، نتيجة تصور أن العالم السفلي يتخطف الأحياء عن الأرض، لينزلهم موتى إلى باطنه، كمن يلتهمهم، أو أن (كور) كان يتخطفهم من الدنيا الأرضية، وبذلك يكون بداية لفكرة ملاك الموت السامي (عزرائيل).

وفي إحدى مناحات الإلهة (إنانا INANA) على حبيبها (تموز DAMUZI) نجد للعالم التحت أرضي إسماً آخر هو (آدن، أو أدين، أو الدين EDIN) فهو عالم الدين والكلمة (EDIN)، في الأصل تعني السهل[٧٠].

وقد اهتم السومريون بالموتى، وزخرفت قبورهم بالمتاع والطعام والشراب، ويبدو أنه كان بقصد انتفاع الميت بهذا المتاع، لذلك ربما اعتقدوا بعودة روح الميت بين آن وآخر من العالم التحت أرضي إلى القبر وهو ما افترضه (نجيب ميخائيل)[٧١] لكن ربما كان لوضع المتاع سبب آخر، وجائز أنهم اعتقدوا ببقاء الميت في قبره حياً لفترة محددة، قبل هبوطه إلى العالم التحت أرضي، مما يجعله محتاجاً في هذه الأثناء للطعام والشراب، علماً أن حكام سومر قبل عهد العاهل (أورنامو) كانوا يصطحبون معهم عند الموت مقتنياتهم وحاشيتهم من بشر، بأن يتجرعوا السم ليهبطوا بصحبة سيدهم إلى عالم تحت الأرض[٧٢].

وقد لوحظ اعتقاد السومريين أن أعظم شر يمكن أن يلحق بالميت هو عدم دفنه وفق تقاليد طقسية محددة، لأنه في هذه الحالة سيتحول إلى روح شرير تجوس في الأرض تؤذي الأحياء، ويبدو أن هذه الفكرة صياغة كهنوتية قصد منها الكسب ليس أكثر، وهو ما يستنتج من المثل السومري الساخر: «أغلى شيء في لجش هو أن تموت»(٧٣) مما يشير إلى ارتفاع أجور الكهان لممارسة عملهم في طقس الدفن ومغالاتهم في ذلك.

أما الحياة في العالم التحت أرضي، المحاط بأسوار سبعة لكل منها باب واحد(٧٤)، يحكمه (كور) وزوجته (ايرشكجال) مع معاونين من المردة والجن، فلها قواعد، أهمها العري التام، فالميت يدخله عارياً كما ولد عارياً، وهو مانفهمه من أسطورة (نزول إينانا إلى العالم السفلي)(٧٥)، وإن كان سينال بدل الملابس ريشا ينبت على جسده كالطيور(٧٦)، لكن للأسف، ليس في هذا العالم ميزة لصالح على طالح، فالكل فيه في الرغام والطين والظلام الأبدي سواسية الرفيع فيه كالوضيع(٧٧).

وهكذا يتضح أنه ليس ثمة علاقة محددة بين هذا العالم التحت أرضي وبين عالم الآلهة الخالد الدلموني، وإن صفة الأبدية في كليهما لا تعني أبداً وجود قاسم مشترك بينهما، بل أنه ليس هناك أية علاقة بين صنفَي الآلهة الدلمونية وبين الآلهة التحت أرضية.

* * *

الهوامـــش

(١) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي مكتبة النهضة المصرية، ط٧ ، القاهرة ١٩٦٤م، ج١ ، ص٨ .

(٢) جان بوتيرو: الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، نشر جامعة بغداد، ١٩٧٠م، ص٢٦ .

(٣) جوردون تشايلد: التطور الاجتماعي، ترجمة لطفي فهيم، مؤسسة كل العرب القاهرة، ١٩٦٦ ، ص١٨٠ .

(٤) صموئيل نوح كريمر: السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة د. فيصل الوائلي، وكالة المطبوعات، الكويت، د.ت، ص٥٦ .

(٥) سيتون لويد: آثار بلاد الرافدين، ترجمة د. سامي سعيد الأحمد منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠ ، ص٧٠ .

(٦) - Chesneaux (Jean): In center d'Etudes et de Recherches Marxistes (C.E.R.M.) sur Le "Mode de prouction a siqtque" Edition sociales. Paris, 1969, P. 29.

(٧) موريس غود وليبه: (ضمن كتاب: حول نمط الانتاج الآسيوي، مع جان سوريه وآخرين، ترجمة جورج طرابيشي، دار الحقيقة، ١٩٧٢ ، ص٧٥).

(٨) - Frankfort (Henri): La Royaute et les dieux, Paiot, Paris, 1951, p. 269.

(٩) - Frankfort (Henri): the Birth of Civilisation in the Near East, Wiliams and Norgate Limted, Great Britain, 1951, p. 290.

(١٠) د. عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، الهيئة المصرية العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧م، ج١ ، ص٤٠١ .

(١١) د. نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، حضارة العراق القديم، دار المعارف القاهرة، ١٩٦١م، ج٦ ، ص٤ .

(١٢) كريمر: السومريون.. سبق ذكره، ص٤١٢ .

(١٣) كريمر: الأساطير السومرية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف بغداد، ١٩٦١م ، ص١٩ .

(١٤) كريمر: السومريون.. سبق ذكره، ٤١٢ .
(١٥) كريمر: السومريون.. سبق ذكره، ص١٥٥ .
(١٦) كريمر: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى بغداد، ومؤسسة الخانجي بالقاهرة، ١٩٧١م، ص١٥٥ .
(١٧) كريمر: السومريون.. سبق ذكره، ص١٦٣ .
(١٨) سبتنيو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ترجمة. د. السيد يعقوب بكر، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧ ، ص٧٥ .
(١٩) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١٠٣ ، انظر أيضاً جان بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٦ ، وكريمر: السومريون، سبق ذكره ص١٥٧ ، ود. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت. ص١٤٣ .
(٢٠) كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٧٢ .
(٢١) بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٦ .
(٢٢) كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٨٣ انظر أيضاً فراس السواح مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠ ، ص٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٢٣) كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٨٣ .
(٢٤) د. فاضل عبد الواحد: الطوفان في المراجع المسمارية، أوفست الإخلاص، بغداد ١٩٧٥ ، ص٥٤ .
(٢٥) بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٧ .
(٢٦) د. ميخائيل: سبق ذكره، ص١١٥ ـ ١١٧ .
(٢٧) د. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد... سبق ذكره، ص١٤٤ .
(٢٨) د. فوزي رشيد: الديانة، المعتقدات الدينية، (ضمن سلسلة كتب تاريخ العراق مع آخرين)، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٥ ، ج١ ، ص١٥٢ ـ ١٥٤ .
(٢٩) كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٧٣ .
(٣٠) كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٧٨ .
(٣١) ميخائيل: سبق ذكره، ص١١٨ .
(٣٢) د. فاضل عبد الواحد: عشتار ومأساة تموز، وزارة الإعلام العراقية، بغداد ١٩٨٣ ، ص٣٦ ـ ٤٠ .
(٣٣) د. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد.. سبق ذكره، ص١١٩ .
(٣٤) بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٨ .

(٣٥) كريمـر: السومريون.. سبق ذكره، ص١٤٩ ـ ١٥٠ .
(٣٦) كريمـر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٥١ .
(٣٧) السـواح: مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة ـ بيروت ١٩٨٠ ـ ص٢٧ .
(٣٨) كريمـر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٦٥ ـ ٦٦ .
(٣٩) د. فـوزي رشـيد: خلق الإنسان في الملاحم السومرية والبابلية، مجلة آفاق عربية بغداد، آيار ١٩٨١ ، ص١٧ .
(٤٠) د. فوزي رشيد: الموضع نفسه.
(٤١) في قصة التكوين البابلية Enuma Elish (وكان يراد بها تمجيد مردوخ كبير آلهة بابل بحسبانه خالقاً للكون) جاء القول: إنه في البدأ لم يكن في الوجود سوى محيط من الماء شاسع، اختلط فيه الماء العذب (آبسو)، بالماء المالح (تيامة) التفاصيل يرجع إليها في موسكاتي، سبق ذكره، ص٨٣ ـ ٨٥ .
(٤٢) من المعروف لدى الباحثين في تاريخ الديانات وفي الميثولوجيا بشكل عام أن (ال) أو (إيل) يعد كبير الآلهة السامية على اختلاف مواطنها، بما فيهم اليهود وقد ورد اسمه في التوراة مرافقاً للعهد الإبراهيمي حتى نبوة موسى، كما ورد ملصقاً في أسماء الأعلام، لآلهة أدنى منه شأناً تحولت مع التطور إلى (الملائكة)، كما في أسماء عزرائيل، جبرائيل، إسرافيل، ميكائيل، إلخ.
(٤٣) كريمـر: من ألواح.. سبق ذكره، ص٦٣ .
(٤٤) د. فوزي رشيد: خلق الإنسان.. سبق ذكره، ص٢١ .
(٤٥) كريمـر: السومريون.. سبق ذكره، ص١٩٩ .
(٤٦) كريمـر: من الواح.. سبق ذكره، ص١٩١ .
(٤٧) بوتيرو: سبق ذكره، ص١١٠ .
(٤٨) د. حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، مطبعة المصري، الاسكندرية ١٩٧١ ، ص١١ .
(٤٩) كريمـر: السومريون.. سبق ذكره، ص٤٦ .
(٥٠) ظاظا: سبق ذكره، ص٣٤ .
(٥١) تقول التوراة: «ودعا» آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حي، تكوين ٣ ـ ٢٠».
(٥٢) كريمـر: من ألواح.. سبق ذكره، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤ .
(٥٣) كريمـر: السومريون.. سبق ذكره، ص٤٠٧ .
(٥٤) كريمـر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٨٥ .

(٥٥) كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص٢٤٤ .
(٥٦) كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٨٦ .
(٥٧) د. زايد: سبق ذكره، ص١١٨ .
(٥٨) كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٨٦ـ ٨٧ .
(٥٩) كريمر: الموضع نفسه.
(٦٠) د. ميخائيل: سبق ذكره، ص٢٦٣ .
(٦١) ن.ك. ساندرس: ملحمة جلجامش، ترجمة نبيل نوفل وفاروق حافظ، دار المعارف، ١٩٧٠ ، القاهرة، ص١٠٢ .
(٦٢) السواح: سبق ذكره، ص٢١٤ .
(٦٣) موسكاتي: سبق ذكره، ص٩٠ ، انظر أيضاً: ديورانت. قصة الحضارة ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ط٢ ، ١٩٦١ ، القاهرة مج١ ، ج٢ ، ص٣٠ .
(٦٤) للمزيد ارجع إلى موضوعنا: من الطوفان السومري إلى الطوفان النوحي، مجلة آفاق عربية، عدد ٩ ، ١٩٨٣ .. بغداد.
(٦٥) س. لامبرج كارلوفسكي: دلمون مدخل ـ إلى الخلود، ترجمة كامل مصطفى اللحام مجلة الثقافة العالمية، وزارة الإعلام الكويتية، مارس ١٩٨٣ ، ص١٠٤ .
(٦٦) سيد القمني: (الأضاحي والقرابين، الجذور الاجتماعية)، فكر الدراسات والأبحاث، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة عدد١١ ، و(القمر الأب أو الضلع الأكبر في الثالوث) مجلة الكرمل، نيقوسيا، عدد ٢٦ .
(٦٧) ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ط٣ ، ١٩٦١ ، مج١ . ج٢ ، ص٣١ .
(٦٨) ساندرز: سبق ذكره، ص٩٢ .
(٦٩) السواح: سبق ذكره، ص٢٨ .
(٧٠) د. فاضل عبد الواحد: عشتار.. سبق ذكره، ص١٦٩
(٧١) د. ميخائيل: سبق ذكره.. ص١٧٧ .
(٧٢) كريمر: السومريون.. سبق ذكره، ص١٧٣ .
(٧٣) د. ميخائيل: سبق ذكره، ص١٧٨ .
(٧٤) كريمر: السومريون.. سبق ذكره، ص١٧٨ .
(٧٥) كريمر: الموضع نفسه.

(٧٦) د. ميخائيل: سبق ذكره، ص١٧٨ .

(٧٧) جيمس هنري برستد: انتصار الحضارة، ترجمة د. أحمد فخري، مكتبة النهضة المصرية، د.ت. القاهرة، ١٧٨ .

ملحــــوظة: المصادر: لويد، تشايلد، شيسئو، غودولييه، التكريتي، فرانكفورت: ..Royaut e و..The Birth أخذناها نقلاً عن: د. عبد الرضا الطعان في كتابه: الفكر السياسي للعراق القديم، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨١ ، والكتاب ذو فضل لا ينكر لفهم أبعاد الفكر السياسي في العصر السومري.

الباب الثاني

سفر التكوين البابلي

تأسيس

إذن استطاع الساميون المهاجرون، أن يصبحوا أصحاب السيادة في كافة بقاع الهلال الخصيب (بلاد الرافدين، سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن)، حتى لم نسمع شيئاً عمن سبقهم هناك، لكنهم فيما يزعم الباحثون ـ ولنا تحفظنا ـ كانوا أول أمرهم عالة على ثقافات أصحاب المنطقة الأصليين، ثم تمثلوا هذه الثقافات، وعبدوا أربابها، ومارسوا نظمها وعاداتها وتقاليدها، وأحياناً مزجوا بين ما حملوه من لغة وثقافة في بيئاتهم الأصلية، وبين الجديد في المواطن الجديدة والباحثون يؤكدون أن أهم ثقافة أثرت في هؤلاء المهاجرين الوافدين هي الثقافة السومرية، التي حفظت داخل التراث الديني السامي بعد ذلك، الذي تبلور نهائياً في الثقافة اليهودية، التي تضمها دفتا الكتاب المقدس (التوراة).

وقد أشرنا مسبقاً إلى أن أول الموجات من هذه الهجرات المتدفقة كوّنت دولة في الرافدين، هي موجة القبائل الأكادية، التي بدأت بالاستقرار على حدود الدويلات السومرية، ثم تسللت إلى الداخل تدريجياً، وأخذ أفرادها يتقاطرون داخل المدن السومرية، ليعيشوا أول الأمر كمواطنين وافدين من الدرجة الثانية، وفي ظروف غير معروفة تمكنوا من الإمساك بزمام الأمور، بعد أن استطاع أحد أفذاذهم أن يصل في مدارج نجاحه الوظيفي، إلى رتبة

ساقي القصر الملكي في مدينة (كيش)، ثم وثب على العرش، ليعرفه التاريخ باسم الملك (شاروكين SHARUKEN) أي الملك الشرعي أو الصادق، وعرفته تواترات التاريخ باسم (سرجون الأول)، الذي تعصب لبني جلدته الساميين، وبالاعتماد عليهم تمكن من أن يجعل نفسه ملكاً مطلق النفوذ وأن يوحد دويلات سومر في دولة واحدة، هي الدولة الأكادية، التي استمرت ما يقرب من مائتي عام (٢٣٤٠ ـ ٢١٨٠ق.م)، التي كانت أول المراكز القومية المركزية في تاريخ الرافدين.

و(سرجون) هو صاحب أول قصة عن الالقاء في اليِّم، فكتب عن نفسه سيرة كثيراً ما ترددت بعد ذلك في سير أبطال الملاحم الشعبية، فقد ولدته أمه خفية وخيفة، لأسباب غير موضحة، ووضعته في سلة من البوص أحكمت غطاءها بالقار وألقت به في الفرات، فاحتمله الماء، حتى انتشله فلاح اتخذه ولداً وعلمه الفلاحة، وكان كل ذلك تقديراً ربانياً حيث تدخلت العناية الإلهية في النهاية بشكل مباشر وسافر من أجل البطل الموعود، فشملته الإلهة (عشتار ESHTAR) برعايتها ثم بوأته ملوكية البلاد[1].

وبانهيار الدولة الأكاديـة استعاد السومريون قدراتهم وأقاموا لهم دولة موحدة (العصر السومري الثاني)، انتهت بدفقة سامية أخرى من القبائل العمورية (أو الأمورية أو الحمورية)، الذين أسسوا دولة بابل الأولى (١٨٨٠ ـ ١٥٩٥ق.م)، وكان أشهر ملوكها (حمورابي) صاحب القوانين المشهورة (حوالي ١٧٢٨ق.م).

ويتمسك الباحثون برأيهم في أن الثقافة السومرية استمرت تفعل فعلها بعد أن دخلت كنسيج أساسي في ثقافة الساميين الذين استوطنوا البلاد، وتسربت إلى كافة الثقافات السامية في جميع مواضع الهلال الخصيب، ويعلل (كريمر) ذلك بقوله:

وجدت جميع شعوب آسيا تقريباً، كالأكديين والآشوريين والبابليين

والحيثيين والكنعانيين والعيلاميين:... أن من مصلحتها استعارة الخط المسماري، لغرض تدوين سجلاتهم وكتاباتهم الخاصة.. كانا يتطلبان تدريباً شاملاً في اللغة والأدب السومريين ولتحقيق هذا الهدف ـ كان المعلمون والكتاب من ذوي المعرفة، يستوردون بلا شك من الأقطار المجاورة بينما كان الكتبة المحليون يشدون الرحال إلى بلاد سومر، للحصول على تعليم خاص في مدارسها ذات الشهرة الكبيرة، وكانت النتيجة انتشاراً واسعاً لبذور الحضارة والأدب السومريين، إن أفكار السومريين ومثلهم، كأفكارهم في الكون واللاهوت والأخلاق ونظام التعليم، تغلغلت إلى درجة كبيرة أو قليلة في أفكار وكتابات جميع شعوب الشرق القديم...[٢].

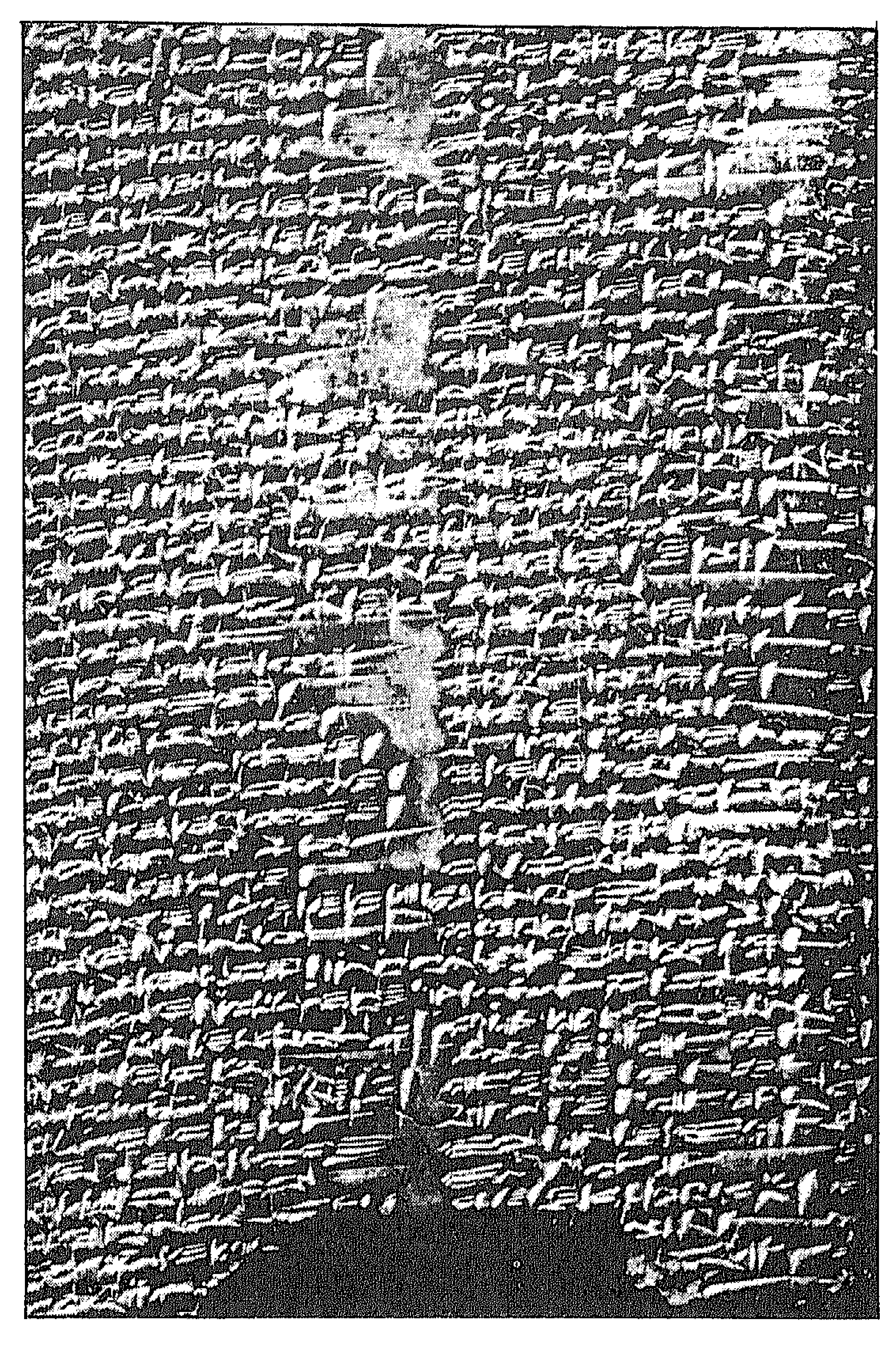
دور الملك في التكوين:

استطاع (سرجون) إذن، ولأول مرة، أن يوحد مدن سومر في دولة مركزية موحدة، يسودها عنصر سامي وافد، وكان ذلك إيذاناً بتحول فوضى الفرقة إلى نظام، في جهاز إداري واحد صارم، وخضوع كافة السلطات الاجتماعية المتراتبة، لسلطة واحدة آمرة ناهية، تتمثل في شخص الملك الجديد، المالك لكافة المشتركات المدينية السابقة، التي تحولت بسادتها البشر والآلهة إلى اتباع للسيد الجديد مطلق النفوذ، الذي تحول بدوره بالسلطة المجردة من القسر إلى سلطة باطشة، بعد أن تدهورت سلطة مجالس المشتركات الأولى وقيودها على العاهل تدريجياً نتيجة للاتساع الهائل للدولة ليمسك الملك المتحرر النفوذ بكل السلطات، وفي الدول السرجونية، تحرر الملك تماماً من نفوذ أي مجالس شعبية، وأصبح القسر والبطش الأسلوب الأسرع في الوصول والتأثير في البقاع المترامية الأطراف، لتحقيق مآرب الدولة الموحدة، إزاء طوارىء لا تحتمل انتظار الرأي الشعبي في دولة واسعة، وتم تمثيل الكل في ذات الحاكم، والإله الذي ساد بسيادة هذا الحاكم، ومن ثم أخذ الإله يتحول عن صورته الرحيمة القديمة كأب بدائي للمشترك، ليتحول إلى طاغ طغيان الملك، كلمته نافذة نفاذ كلمة الملك، عصيانها قد يدمر الدولة أو يؤخرها على المستوى الإنساني، فهي خيانة عظمى، وعصيانها

على المستوى الإلهي كفر وإثم عظيم، ومن ثم أصبحت كلمة الملك والإله واحدة، لا راد لها ولا لقضائها، فتحولت القدرة الإلهية من الفعل بالعمل، إلى الفعل بالكلمة، وظهر لأول مرة دور الكلمة الإلهية في التكوين الرافدي، على ما سنرى بعد قليل.

المهم أن الساميين الوافدين تركوا الآلهة السومرية على حالها لكن مع تبديل في أسمائها إلى أسماء سامية، ومع بعض التغيير في الأدوار والوظائف، فظل مجمع السبع مقررة المصائر قائماً وكذلك مجمع العظام الخمسين، لكن بعد أن توارى (آن) زعيم السبع مقررة المصائر، ليحل محله (إيل) أو (إل) السامي أما الأرض (كي) فأصبح (أرد ARD)، كذلك (أوتو) الشمس تم تعديله إلى (شمش)، و(نانا) القمر باعتباره الإله جميل الصورة الزين، إلى (سين)، والزهرة (إينانا) إلهة الجنس الشبقة العاشقة دوماً للعشرة والمعاشرة الجسدية، أصبحت (عشتار) من العشرة والتعشير (أي الجماع والحمل)، بينما تحول (آنليل) إلى (إلليل) خلال الدولة الأكادية، ثم أزاحه إله الدولة البابلي الصاعد (مردوخ MARDUK) نهائياً، واستولى على صفاته ومناصبه، ثم لم يكتف بذلك، بل اقتنص كل اختصاصات الآلهة العظام الخمسين، ولما يمض وقت قصير حتى تمكن من الاستيلاء على اختصاصات باقي الآلهة، وحتى دور (آنكي) الأب الأول، سُلب منه مبدئياً على يد إله جديد هو (آيا EA)، ثم أخذه منه (مردوخ) باعتباره في الميثولوجيا البابلية ابن (آيا) ووريثه، أو الابن الذي فاق أباه قوة وحكمة.

وفي ذلك يقول (عبد العزيز صالح): إنه قد «انتفع البابليون ببعض عناصر الفكر السومري، عن أصل الخلق المادي والمعنوي في دنياهم، وخرجوا بنظرية عن نشأة الوجود، جعلوا ربهم قطب الدائرة فيها»[٣]، ويضيف (بوتيرو): «إن البابليين لا يبدو أنهم افترضوا انعداماً كلياً للاشياء كأصل الوجود، بل افترضوا فوضى وعدم انتظام شامل، وبهذا فإن الكون لا يبدأ بخلق.. لكن يبدأ بتنظيم ما هو في حالة فوضى»[٤].



كتابة مسمارية من اللوح الرابع في قصة الخلق (إينوما إيليش) الرافدين القديم

وقد وردتنا أسطورة شبه متكاملة للتكوين البابلي، في الملحمة المسماة (إينوما إيليش Enuma Elish) التي تعني (في العلا عندما) أو (عندما في العلى)، وقد دونت سبع لوحات، يعود تاريخ كتابتها إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وتؤكد أن مبعث الفوضى الكونية الأولى كان سيادة إلهة أنثى عريقة قديمة، هي الإلهة (تيامت TIAMAT) ولنستمع إلى (بوتيرو) يسرد علينا موجزاً لهذه الملحمة، فيقول:

> في الأسطورة الشهيرة للخليقة، المسماة إينوما إيليش.. التي الفها علماء الدين في بابل: لتعظيم الإله مردوخ.. في الأصل لم توجد سماء ولا أرض، لكن فقط مياه في حالة من الفوضى، مكونة من إلهين أصليين، اختلطا مع بعضهما، هما الآبسو، والمومويتيامت.. ونتيجة اندماج هذين الإلهين.. خرج الإله آن، الذي أولد أيا على شكله، والإله أيا قضى على الآبسو لأنه أراد تدمير نسله، وأولد مردوخ وتبع هذا الحدث، ثورة تقودها تيامت ضد الآلهة انتقاماً للآبسو، وتُحضر لمعركة مخيفة وتجهز مجموعة من الوحوش الكاسرة.. ويرفض الإله أيا الاشتراك وخوض الصراع ضد تيامت ويقبل الإله مردوخ النزال، للحصول على السلطة العليا.. ويجري النزال وجهاً لوجه، مردوخ ضد تيامت، وينتصر عليها، ويسجن جيشها المخيف ويقسم جسدها إلى نصفين، وينفخ فيه الهواء ويعمل من نصف جسدها العلوي ـ الذي يرميه إلى الأعلى ـ السماء، ومن النصف الثاني.. الأرض.. وينظم بذلك مردوخ القبة السماوية بكل نجومها، التي حاز عليها بعد نضال عنيف في تنظيم عالم الآلهة، ويتوج، ويحتفل به كسيد للآلهة السماوية، وعلى الأرض[٥].

إذن: كان في الأصل غمر مظلم من الماء، ذكر هو الأبسو (عرفناه باسم آنكي أو إنسي السائل المخصب)، والمومو (أي الماما أو الأم الكبرى) تيامت، (وواضح لصق اسمها من تي + أم = تيام = الأم تي)، وبتلقيح الآبسو كسائل مخصب للأم تيامت، جاء اللاإله السماء (آن) وولد (آيا) الذي قضى على (آبسو) لأنه أراد تدمير نسله (ولنلحظ الرمزية هنا: أيا إله حل محل الإله

آبسو كإله للسائل المخصب في الثقافة السامية الغازية محل الثقافة السومرية أما لماذا قضى أيا على آبسو، فلأن آبسو إله سومر، أراد تدمير نسله أيا السامي؟).

ثم ولد (أيا) ابنه (مردوخ) إله الدولة والملكية المركزية ونتيجة مقتل السومري (آبسو) قامت الأم الإلهة تطالب (أيا) السامي بدمه، وهنا يقوم الإله الابن (مردوخ) بالصراع ضد (تيامت) ليحصل على السلطة العليا.

ولنفهم المعنى الأخير (لكي يحصل على السلطة العليا)، نستعين مباشرة بلوحات (الإينوما ايليش) فنجدها تقول:

إن الآلهة وهي تجد نفسها مهددة من الأم البحر (تيامت) تلجأ إلى (مردوخ) أحدث الآلهة، إله الدولة الجديدة، لكن (مردوخ) يستفيد من ذلك، ليتجاوز سلطة مجلس السبع مقررة المصائر الخالقة، والخمسين العظام فيقول:

إذا كان عليَّ أن أكون بطلكم
وأن أقهر تيامت، وأنقذكم
اجتمعوا إذن
واعلنوا عن سلطتي العليا
اجلسوا حقاً فرحين
في بشو كينو
واتركوني احدد مثلكم المصير
وذلك عن طريـق:
الكلام الذي ينطق به فمي
وبهذه الطريقة
لن يكون بالإمكان
أن يتغير شيء مما أقرر
الأمر الذي أعطيه
لا يُرد، لا يتغير

وفعــلاً

أقاموا له عرشاً يليق بأمير
وجلس يتراس وهو يواجه اباءه
أنت الأكثر تمجيداً بين كبار الآلهة
إن ما تقرره لا يعارض
إن كلمتك الآمرة هي كلمة آن
منذ اليوم
لا يكون ما تنطق به عرضة للتغيير
نطقك يغدو الحقيقة
وأمرك لا يحتمل شكاً
وقالوا لبكرهم مردوخ:
افتح فمك
تتلاشى قطعة القماش
تكلم ثانية
تعود القطعة كما كانت..
ولما رأى اباؤه ثمرة كلمته
قدموا له الخضوع في فرح
قائلين: من دونك ملك..
أيها السـيد:
احفظ حياة من يؤمن بك
أيها السـيد:
انزع حياة الإله الذي يضمر السوء
مر بالغرق، أو بالخلق
يكن ما تأمر به (٦).

وهكذا ظفر (مردوخ) بالسلطة المطلقة، وتخلى له مجلسا الآلهة عن سلطانها، ليصبح سيداً أوحداً، معبراً عن سلطة الملك البابلي، في دولته المركزية الواسعة، ويؤكد لنا ذلك، طقس سنوي كان يقوم فيه الملك بتمثيل

دور (مردوخ) في مسرحية دينية، يحارب فيها (تيامت) وجيشها حتى يقضي عليها[٧]، ممثلاً بذلك وقائع سفر التكوين، وقد ذكر هذا الطقس في أكثر من نقش، إضافة إلى أننا نتأكد من مصداقية هذا الربط الذي نفترضه بين مردوخ والملك، بالنظر إلى ما ورد في الأسطورة ذاتها، فالآلهة تقول:

لقد خلصتنا الآن أيها الإله
فماذا ستكون هبتنا لك؟
(إن الهبة ستكون هي تثبيت الملوكية، انظر النص:)
دعنا نبني عرشاً
مأوى لإقامته؟![٨].

ولا يكتفي (مردوخ) بذلك، كما لم يكتف الملك بمجرد عرش، بل يسلب (مردوخ) الآلهة العظام الخمسين في المجلس سلطاتهم، أو كما تقول الأسطورة:

أما نحـن
فمهما أطلقنا عليه
فهو إلهنا
ألا فلنعل أسماءه الخمسين!![٩]

وهكذا يستولي الملك بدوره على سلطات المجالس شبه الديمقراطية الأولى، الباقية من نظام المشتركات المدينية، بعد توحيدها في دولته المركزية، مع ملاحظة أن هذه التطورات تعبير في الوقت ذاته، عن سيادة مطلقة للإله الذكر، تمثلت في الفعل والخلق بمجرد الكلمة، كما تمثلت في لوحات (الإينوما إيليش) حيث يقوم (مردوخ) بما قام به (إنليل) من قبل، لكن (إنليل) الذي ظل زماناً طويلاً إلهاً لطيفاً لطف طبعه (الهواء)، فرفع أباه (آن) عن أمه (كي)، في مياه الغمر الأولى (نمو)، أما (مردوخ) فكان عنيفاً قاسياً، بعد أن حاز إمكانات أصبحت ضرورية، لحفظ الاستقرار في دولته السماوية، وضرورية للملك الأرضي لذات الغرض، وهو رأس دولة كبرى مترامية

الأطراف، تحتاج حزماً وقوة وعنفاً، لذلك قام (مردوخ) وبقسوة ينفخ (تيامت) بالهواء، ثم:

شقها كما تشق الصدفة قسمين
وثبت نصفاً جعله سقفاً سماء[10]
شطر جسدها شطرين،
أعلاهما ثبته في السماء
خلق منه السماء
والأسفل ثبته في الأرض
خلق منه الأرض[11]

(يعقب موسكاتي هنا بقوله: وبذلك قسم المياه الأولى إلى مياه فوق الجلد Firmament وأخرى تحت الجلد)[12].

ونتابع الإينوما:

صنع مردوخ منازل للآلهة
خلق الأبراج
ثبتها في أماكنها
حدد الأزمنة
جعل السنة فصولاً
ولكل شهر من الإثني عشر
ثلاثة أبراج
حدد الأيام بأبراجها..
وإلى الشرق
وإلى الغرب
فتح بوابة
وسلط القمر على الليل
وجعله زينة في الليل
به يعرف الناس مواعيد الأيام[13]

وبعد أن رتب (مردوخ) في هذا الماء، أو الجلد السماوي، كواكبه ونجومه، والنيّريـن الكبيرين: الشمس والقمر، هبط إلى النصف الثاني (الماء والأرض)، وهناك:

مردوخ على سطح الماء
ظفر حصيراً وصنع شيئاً من التراب
وخلطه مع الحصير
وهذا كون لوحاً صلباً
فوق المياه
هو: الأرض[١٤].

لكن سماء (مردوخ) لم تكن سماء واحدة، وأرضه لم تكن أرضاً واحدة إنما كانت السماء سماوات، فهي سبع سماوات طباقاً، والأرض أيضاً، طبقات سبع، أما في أعلى السماوات، فقد ابتنى (مردوخ) لذاته العليا عرشاً يليق بجلاله، وبإطلاقية سلطانه[١٥].

ولما انتهى (مردوخ) من التكوين الكوني، اجتمعت الآلهة واحتفلت بتتويجه سيداً للكون، وبنوا له مدينة (بابل) أو (باب ـ إيل) أو (باب ـ الإله) لتكون مقراً لممثله على الأرض، وفي وسطها بنوا له معبد (الإيساجيل Esag El) وترجمته الحرفية (مقر رأس الإله)[١٦]، مما يشير إلى أن (مردوخ) قد تعرض للقتل والذبح، باعتبار المعبد مدفناً للرأس فقط، مما يربطه بآلهة الفداء الشهيدة وعبادات الخصب والري، مثل (أوزيريس OSIRIS) المصري و(أدونيس الفينيقي)، الذي هو أحد البعول الكنعانية، و(آتيس ATIS) الفريجي، (وميتهرا METHERA) الفارسي. (ويسوع) العبري و(الحسين) العربي.. إلخ، وقد وجدنا أن أسطورة إله الري الذبيح قد لحقت بالإله (مردوخ)، وكانت تقام له سنوياً، طقوس واحتفالات للتذكرة بعودته حياً من بين الأموات، في عيد للقيامة مجيد، وساعتها يتلو الكهنة أمامه أسماءه الخمسين، إعلاناً عن حيازته كل ألقاب السيادة، وأهم هذه الألقاب لفظ

الجلالة الأسمى (إل) أو (إيل)، ولقب (بعل) أي سيد الآلهة أو ربها، ويفيد السيادة عموماً، وغني عن البيان أن الملك البابلي وهو يقوم بدور (مردوخ) في هذه التمثيلية الدينية، كان يحظى سنوياً وبتكرار دوري وتكريس مستمر، باعتراف أعضاء كل المشتركات المنضوية تحت لوائه، بسيادته المطلقة، بعد أن حاز كل الأسماء وكل شارات السيادة، وكل رموز السلطان المرموز لها في الأسطورة بالأسماء الخمسين.

وعليه فقد استولى الملك نهائياً على كافة شارات ومناصب آباء المشتركات، الذين بدأوا سادة بدائيين، ثم سادة لمشتركات معبدية فمدينية، وانتهى أمرهم بالتسليم للملك القوي الصاعد، المتربع على عرش بابل، فأصبح هو الأب الواحد الأوحد للجميع، ولا أب يدانيه في إطلاقية النفوذ، ويبدو أن بداية ظهور الأب الأرضي المتفوق هي التي أفرزت رباً متفوقاً عن بقية الأرباب، كخطوة تطورية في السماء أفرزها جدل المجتمع على الأرض، مما ميز بالتدريج إلهاً عن سائر الألهة، استطاع بعد ذلك أن يلغيها ويجعلها آلهة تابعة، لعدم قبول رفيقه السيد الأرضي المستبد بوجود أي منافسين له.

ومن هنا أصبحت كلمة السيد الأرضي المتربع في بابل لا راد لها، نافذة بقوتها الذاتية، لأنها صادرة عن فم الأب الأعظم، الذي تمثل كلمته حكمة الإله (مردوخ) يكفي أن تكون نطقاً باللسان فيكون كل المراد محققاً في الواقع.

وبذلك تركت الفكرة السامية عن الكلمة الملكية الفاعلة بذاتها، أثراً في عموم فروع اللغة السامية، وأصبح الأمر (كُن) من الفعل يكون أي يوجد، (ويكوِّن) أي يخلق، والعالم الموجود بكليته إنما هو أحد اشتقاقات الكلمة، فهو (الكون)، فامتلك الأمر (كُنْ) قدرة سحرية لغوية تؤدي بمجرد نطقها، من قبل شخص مؤهل لها (ملك، إله، ساحر، كاهن) إلى (الكينونة)، أي الوجود الواقعي المتحقق (كياناً) عيانياً.

لكن الأمر الواجب إيضاحه هنا، هو أن (مردوخ) لم يخلق بالكلمة إنما بالعمل اليدوي، فقد شق (تيامت) كما تشق الصدفة، ورفع السماء وحط الأرض. . . الخ، بينما اقحمت مسألة القدرة السحرية للكلمة الفاعلة (كُنْ) اقحاماً في (الإينوما ايليش):

أقاموا له عرشاً يليق بأمير
وجلس يترأس وهو يواجه أباءه
أنت الأكثر تمجيداً بين كبار الآلهة
أن ما تقرره لا يعارض
إن كلمتك الآمرة هي كلمة آن
منذ اليوم
لا يكون ما تنطق به عرضة للتغيير
نطقك يغدو الحقيقة
أمرك لا يحتمل شكاً؟!

واضح أن النص هنا ليس تعبيراً عن مطلب الملك الأرضي، ليصبح سيداً مطلق النفوذ، إزاء طوارىء اكتسبت صفة الديمومة، بحيث تنفذ أوامره دون مناقشة، لذلك نلحظ أن كل ماجاء عن الكلمة الخالقة في الأساطير لا يتعلق فعلاً بما حدث لتكوين الكون وإيجاده، إنما كان تجربة كتجارب الحواة وألعابهم، قصد بها تأكيد تبعية الأتباع للسيد، أنه (لو أراد) شيئاً بالكلمة سيحققه:

ووضعوا في الوسط قطعة قماش
وقالوا لبكرهم (مردوخ): افتح فمك
تتلاشى قطعة القماش
تكلم ثانية تعود القطعة كما كانت
ولهذا
قدموا له الخضوع في فرح قائلين:
مَنْ دونك ملك؟

وإعمالاً لكل ما سبق، يمكننا الزعم أن دخول فكرة الكلمة الخالقة إلى سفر التكوين، بدأت تعبيراً عما وصل إليه التطور السياسي في المجتمع الإنساني، وتعبيراً عن وجوب الطاعة الكاملة غير المشروطة للعاهل الذي لا ترد كلمته ولا تتبدل، والتي يجب تنفيذها الفوري مهما كانت غير مقبولة أو غير معقولة، ومع ذلك واصلت فكرة الكلمة الخالقة صعودها الخيالي في اللغات السامية، ليصبح الأمر (كُنْ) دلالات القوة الفاعلة في الكلام لكنها على المستوى الفعلي لم تكن ذات دور فاعل حقيقي في عملية الخلق، التي تمت بموجب (الإينوما إيليش) البابلية.

وظل فكر الساميين الديني بعد ذلك، يحتفظ بكلا الفكرتين جنباً إلى جنب: الخلق بالعمل اليدوي والفعل البدني من جانب الإله الخالق (يفصل السماء عن الأرض، يخلق الإنسان بيديه، يكتب ألواح الشريعة التوراتية بإصبعه. . . الخ) وفي الوقت ذاته، يمكنه أن يخلق بمجرد الكلمة تعبيراً عن سلطانه اللامحدود. وقدرته اللانهائية، لكن يبدو في مختلف نصوص الديانات السامية، أن الأمر (كُن) كان مجرد إمكان غير متحقق (حتى الآن)، أو هو استعداد إلهي موقوف لإثبات القدرة المطلقة فقط فهو استعداد بالقوة لم ينتقل إلى الفعل، وربما ينتقل من القوة إلى الفعل حين يشاء، لكنه لم يعد الآن مجدياً، بعد أن وجد الكون فعلاً بالطريقة اليدوية التصنيعية.

ولو نظرنا لتصوير (مردوخ) في النقوش، سنجده صورة مطابقة للنقوش الملكية، نقش لرجل يلبس تاجاً مخروطياً عالياً، تزينه وريدات، له لحية طويلة مصففة بتجاعيد مصطنعة على غرار صنعة الحلاق بالقصر الملكي، ومثل الملك كان (مردوخ) يرسل شعره خلفه، بينما يرتدي ثوباً طويلاً مرصعاً بالنجوم، يضم يسراه إلى صدره، وهي تقبض على رموز السيادة: (الدائرة والعصا)[١٧] وهما فيما نرى رمزين لحيازة السيادة على مجتمعين ونظامين: الرعوي الذكري والزراعي الأمومي[١٨]، وإمساكهما إمساك بقدرة منح الحياة وإعطائها، فالعصا عضو الذكورة، والدائرة فرج الأنثى.

الدم روح الإنسان:

يقول الباحث العراقي (فوزي رشيد): إن «قصة الخليقة البابلية، قد تضمنت بين سطورها وصفاً لوضعية الآلهة، بعد أن كتب عليها العمل وكيف أن تلك الوضعية كانت لا تختلف عن وضعية الإنسان، بعد خلقه. . .

عندما كانت الآلهة مثل البشر
(وتعني لدينا: عندما كان الملوك كبقية الناس)
توجب عليها العمل
وكانت سلة عمل الآلهة كبيرة
وكان عملهم صعباً
لذلك تعددت الشـكوى..

ويعني هذا أن الإنسان قد خلق، من أجل أن يقوم بتزويد الآلهة بالطعام والشراب والسكن، وهذا ما قاله (فوزي رشيد)[١٩] مع تعليقنا بين قوسين. لكن مع سياق فهمنا للأمور، نرى القصة صدى لواقع حدث، بعد أن تفرغت فئة للحكم، وتحررت من عناء العمل، لذلك تردد القصة ما سبق ورأيناه في التكوين السومري، حيث انقسم مجتمعهم الإلهي إلى صنفين من الآلهة: آلهة عاملة أو شغّيلة، وآلهة متفرغة للخلق وإدارة شؤون الكون، لكن التكوين البابلي قام هنا بصياغة جديدة فأوضح أن الآلهة خلقت البشر ليحملوا هم أعباء العمل، لتتفرغ الآلهة لإدارة شؤون الكون والبشر، وكان أكبر الآلهة (مردوخ) الذي يمثله على الأرض ملك بابل، وما على أفراد المجتمع سوى السعي من أجل خدمته وراحته، وتقديم فائض إنتاجهم بين يديه.

ونعود إلى (الإينوما إيليش) نستطلعها التفاصيل، فتقول في لوحتها السادسة:

الا فليذكر الرعايا دائماً إلههم

وطبقاً لكلمته يهتمون بالآلهة
ألا فلتحمل القرابين
إلى آلهتهم وإلاهاتهم
وبغير نسيان
فليعنوا دائماً برعاية آلهتهم
ليستصلحوا أراضيهم
ويبنوا هياكلهم
ليخدم ذوو الشعور السوداء
آلهتهم [٢٠].

ونستكمل من ملحمة (اتراخاسيس) بدءاً من السطر (١٧٩) بالعمود الرابع، الذي يقول:

(بيليت إلي) كانت حاضرة الرحم
ليتها تخلق الإنسان الأول
لكي يحمل هذا الإنسان سلة عمل الآلهة
نادوا مولّدة الآلهة الإلهة (مامي) الحكيمة
وسألوها:
أنت الرحم خالقة البشر
اخلقي الإنسان الأول
من أجل أن يحمل النير..
سلة عمل الآلهة يجب عليه حملها
فتحت الإلهة (ننتو) فاها
وخاطبت الآلهة العظيمة:
ليس بمقدوري أن أفعل ذلك
إن القدرة بيد الإله (إنكي)
إذ بإمكانه أن يجعل كل شيء طاهر
فتح الإله آنكي فاه
وخاطب الآلهة العظام:
في اليوم الأول، والسابع،

والخامس عشر من الشهر،
سأقيم طقوس الاغتسال
وسأقيم الحمام
وليذبح الآلهة إلهاً من بينهم
وبعد ذلك يطهروا أنفسهم في الحمام
وعلى الإلهة (ننتو) أن تمزج الطين
مع لحمه ودمه
وليت الإله والإنسان يمتزجا سوية
في الطين دعونا نستمع إلى الطبل
من أجل مصير الأيام القادمة
وبسبب لحم الإله
نود أن يسكن شبح الموت
جسم الإنسان .
وليذكر هذا الشبح الأحياء بالموت
مادامو على قيد الحياة
ليت شبح الموت أن يوجد في الإنسان..
ثم فتحت الإلهة (مامي) فاها
وقالت تخاطب الآلهة العظام:
لقد عهدتم إليّ عملاً فأكملته
وما دمتم قد ذبحتم إلهاً رغم قدسيته
فها أنا قد رفعت عنكم عناء أعمالكم
الشـاقة
وجعلت الإنسان يحمل سلة عملكم
وها أنتم قد وهبتم صراخكم للبشرية
وها أنا حللت عنكم النير
حررتكم من الواجبات
ولما سمع الآلهة كلامها
تراكضوا إليها وقبلوا قدميها
وقالوا:

في السابق: الإلهة (مامي) كنا نناديك
والآن: ليكن (سيدة الآلهة) اسمك[٢٢].

ولاستطلاع أمر هذا الإله الذي ذبح، نعود مرة أخرى إلى (إينوما إيليش) فتطالعنا:

قتل (كنجو)، قطعت شرايينه
سال الدم
ومن الدم، خلق الإنسان
ليعبد الآلهة، يخدمها[٢٢].

ولأن (إينوما إيليش) أكثر سامية من (إترام خاسيس) المتأثرة بالفكر السومري أكثر، فإن (الإينوما) تحاول إبراز دور (مردوخ) بفاعلية أوضح، في عملية خلق الإنسان، فتقول:

بعد أن سمع الإله (مردوخ)
كلمات الآلهة،
تحرق قلبه من أجل خلق الكمال
وعندما أخبر الإله (أيا) بقراره
وشرح له خطة العمل
التي رسمها في ذهنه:
أريد أن يحضر لي الدم والعظم
أريد أن أخلق لوللو
الذي سيكون اسمه الإنسان
لاني اريد أن القي عليه عناء الآلهة
حتى تنعم هي بالراحة
وأريد أن أجعل طريق الآلهة
محاطاً بالإبداع..
يجب إحضار أحد إخوانك
لنذبحه ونصنع منه البشر.

وليت الآلهة العظام تجتمع الآن
وتعترف عليه الآلهة
جمع الإله (مردوخ) الآلهة العظام
وبلطف أمرهم أن يقدموا المشورة..
سأضعكم الآن تحت القسم
واطلب منكم الحقيقة
من منكم تسبب في نشوب الحرب
(تيامت)!
(تيامت) آثارتها ونظمت الثورة
عليكم بإحضار الذي تسبب
في نشوب الحرب
لأني أريد أن أحمله وزرها
لتعيشوا أنتم في هدوء..
(كنجو)
هو الذي تسبب في نشوب الحرب
و(تيامت) أثارتها ونظمت الثورة،
ربطوه
وجاءوا به إلى الإله (آيا)
وحملوه وزر جريمته
وسفكوا دمه
وعلى دمه خلق الإله (آيا) البشر
وحملهم عناء الآلهة
وتحررت هي منه
وعندما قَسَّمَ الإله مردوخ
ملك الآلهة
آلهة الأنوناكي إلى قسمين:
علوي
وسفلي (٢٢).

وهكذا سجلت اللوحة السادسة:

إنه (كنجو)
هو الذي أثار الفتنة
وحرض (تيامت) على الثورة
واشترك في المعركة
فقيدوه
وأمسكوا به أمام (أيا)
ووضعوا عليه جريمته
وفصدوا دمه
وصاغوا منه البشر(٢٤).

وعليه سجلت ذات اللوحة قول (مردوخ):

سأكتل العظم وأخلق اللحم
سأصنع إنساناً..
سيكون اسمه الرجل..
سيكلف بخدمة الآلهة(٢٥).

ولنقف الآن مع هذه النصوص، لنحاول معرفة علاقتها بواقع الأحداث، ولنبدأ مع مبتداها:

عندما كانت الآلهة مثل البشر
توجب عليها العمل.

فالنص يردد هنا صدى واقع أحداث المجتمع، قبل تفرد فئة بالحكم دون باقي الأفراد، عندما كان الجميع سواء في العمل، ثم تطورت الأوضاع إلى تفرد البعض الإدارة، واستيلائهم على فائض إنتاج الأفراد:

ألا فليذكر الرعايا إلههم..
ألا فلتحمل القرابين
إلى آلهتهم وإلاهاتهم..

وعلى باقي أفراد المجتمع الكد والعنت والكدح في الأرض،
ليستصلحوا أراضيهم
ويبنوا هياكلهم.

وإن الربط بين العمل في الأرض، وبين بناء الهياكل والمعابد، هو ترسيخ واضح لسلطان الملك المرتبط بفائض العمل، وبقدسيته كإله يستحق هذا الفائض بالحق الإلهي، ثم لنتأمل أبيات ملحمة (إترام خاسيس)، التي يتضح فيها أثر تقديس الميلاد من أم إلهة، وهي فكرة أقدم:

(بيليت إلي) كانت حاضرة الرحم
ليتها تخلق الإنسان.

(لنلحظ أن القراءة الأصدق لاسم الإلهة بيليت إلي هو بعليت إيلي، أي البعلة الإلهة أو السيدة، أو سيدتي البعلة).

وتظهر في النص أثر مفاهيم عبادة الخصب والري في أصل الوجود والخلق بالميلاد من أم أولى، وهو بدوره أثر من عبادة الأم، في مجتمعات الخصب القديمة، وذات النظام الاجتماعي الأمومي الغابر، ويتضح ذلك في النص:

نادوا مولدة الآلهة
الإلهة (مامي) الحكيمة
وسألوها:
أنت الرحم، خالقة البشر.

والإلهة (مامي) هي التي عرفناها في سفر التكوين السومري، باسم (ننتي) أو (ننتو)، وهو ما يردده نصنا الحالي لكن بعد التمازج مع الفكر السامي في نظامه الأبوي الذكري، الذي سلب هذه الأم قدرتها الذاتية على إنجاب الحياة وحدها دون معين، فيقول:

فتحت الإلهة (ننتو) فاها

وخاطبت الآلهة العظمى
ليس بمقدوري أن أفعل ذلك؟
إن القدرة بيد الإله (إنكي)؟

لم يزل الإله (إنكي) حتى الآن فاعلاً في أسطورتنا السامية المبكرة، ومن الضروري أن يلقي ببذرة الخصب، أو السائل المخصب، حتى يتم التكوين المطلوب، لكن يدخل هنا عنصر جديد على المناطق الخصبة، فقد تصورت هذه المناطق في فجر الفكر أن وجود البشر مسألة خاصة بالأم وحدها، خاصة أيام المشاع البدائي القديم، ولم يكن للذكر دور يمكن ملاحظته في عملية الحمل والوضع، كنتائج التقاء المرأة بأكثر من رجل، فتصوروا أن دم الحيض هو سر الميلاد، ومنه يتكون الجنين لدى المرأة دون معين، لكن دخول الثقافة الذكرية أدخل دوراً واضحاً للذكر في التكوين الإنساني، مع رغبة مُلحَّة في إلغاء دور الأنثى تماماً، إلغاء لسلطانها.

وحتى يتم الخلق من الدم باعتباره المادة المعروفة لتكوين الجنين، وليس لديهم مادة أخرى يقبلها حسهم للتكوين المطلوب فنعتقد أنهم عمدوا إلى الدم كمادة لتكوين الإنسان الذي إذا جرح سال منه هذا الدم الذي خلق منه حتى إذا نفذ دمه مات، لكنهم استبعدوا دم الأنثى واستبدلوه بدم ذكري، وبما أن الذكر لا يحيض، إذن فليذبح؟! ومن هنا سجلت النصوص:

قتل كنجو، قطعت شرايينه
ســال الدم
ومن الدم خلق الإنسان

وهكذا نظن الفكر الذكري قد حقق سلطان فلسفته، ثم ضمّنها تفسيره لظاهرة الموت، فالإنسان يموت لأنه تكوّن من دم إله ميت (بعد مزجه بالطين):

وبسبب لحم الإله
نودّ أن يسكن شبح الموت

جسم الإنسان
وليذكر هذا الشبح الأحياء
بالموت
ما داموا على قيد الحياة
ليت شبح الموت يوجد في الإنسان؟!

ثم ترى (الإينوما) الأكثر ايغالاً في الطابع الذكري، ومركزية السلطان، وجوب تقسيم المجتمع طبقتين: طبقة تعمل، وطبقة تحكم وتدير، وهذا هو الكمال وتمام النظام بعد الفوضى الكونية، والاجتماعية، الأولى، فتقول:

بعد أن سمع الإله (مردوخ)
كلمات الآلهة
تحرق قلبه من أجل أن يخلق الكمال
وقد حقق ذلك عندما
قسم الإله (مردوخ) ملك الآلهة
آلهة الآنوناكي
إلى قسمين
علوي وسفلي.

أما لماذا؟ فهو ما يجيب عليه النص بلسان (مردوخ)

أريد حقاً خلق الإنسان
لأني أريد أن ألقي عليه عناء الآلهة!
حتى تنعم هي بالراحة؟

ومن ثم يبدو أن الملك الأرضي، قد سوغ استيلاءه على مجمع السلطات بشكل يعطيه تفويضاً من قبل رؤساء المدن وحكامها، إبان عملية التوحيد والمَرْكَزَة، كي يبدو هذا التفويض شهادة منهم وموافقة غير قسرية فيقول النص:

جمع الإله (مردوخ) الآلهة العظام

وبلطف أمرهم أن يقدموا المشورة
سأضعكم الآن تحت القسم..
من منكم تسبب في نشوب الحرب
(تيامت) أثارتها ونظمت الثورة.

ربما كان ذلك ترديداً لذكرى قديمة، إبان تداخل المجتمعين الذكري الأبوي والأنثوي الأمومي، وسيادة النظام الذكري، وربما كانت تيامت رمزاً للنظام الأمومي الذي غبر بسيادة الذكر.

عالـم آدم:

وهكذا بات واضحاً أن قصة التكوين السامية (أكدية أو بابلية) والتي اصطلحنا على تسميتها (سفر التكوين البابلي)، لم تختلف كثيراً عن (سفر التكوين السومري)، بل رددت مفاهيم سومرية حول الآلهة وطبيعتها، مع اضافات وتعديلات تتلاءم مع التطور الذي لحق النظام الاجتماعي، الذي أرسى نهائياً دعائم حكم الذكر، وعبادة الذَكَرْ، وغني عن الذِكْر أن ذات قصة التكوين، قد عرفت طريقها إلى التراث السامي في مختلف مناطق الهلال الخصيب، مع تعديل طفيف في التفاصيل دون الأصل، مع تغير خَلْع الإله الخالق وتنصيب غيره بتغير السادات، فالإله (أشور) يأخذ دور (مردوخ) عندما تخضع الرافدين للآشوريين، بينما يكون لدى الكنعانيين هو (بعل)، الذي يقوم بمهمة الخلق التي قام بها البعل البابلي (مردوخ) و(إنليل) و(إنكي) السومّريين.

وفي مصير الموتى، ظل العالم التحت أرضي قائماً في مختلف العقائد السامية وفي ذلك يقول: (بوتيرو):

«بالنسبة للبابليين بصورة عامة فإن مابعد الموت لم يكن مغرياً لهم.. وفي أسطورة نزول عشتار إلى العالم السفلي.. وردت تعابير غير شيقة أبدا عن

حالة الموتى التعيسة.. إن طعامهم هو من الطين، إن غذاءهم هو من التراب، لا يرون النور أبداً، فهم يسكنون بالليل».

وحتى عشتار نفسها، لم يكن لها القابلية أو الحق في الدخول بين هؤلاء إلا بعد أن نزعت كل ما يسترها. . قطعة بعد أخرى، وأصبحت على صورة العري الكامل، الذي يستلزمه الذهاب إلى هذا العالم[٢٦].

ولهذا السبب كانت «الحياة بالنسبة للبابلي من أعظم وأكثر الآمال، ونعرف منذ العصر السومري أن الملوك والخاصة، الذين أقاموا المعابد وجهزوا الهدايا للآلهة، عملوا ذلك بكل الوضوح، خوفاً على حياتهم، حتى تكون هذه الحياة طويلة الأمد، وهذا هو الهدف الذي ينشده الورعون والأتقياء من رجال الدين أيضاً، فتقديم القرابين للآلهة يطيل العمر»[٢٧].

ويشرح موسكاتي تطابق وجهة نظر البابليين والسومريين في عالم تحت الأرض بقوله: إنهم اعتقدوا «إن روح الإنسان بعد الموت تنفذ من القبر إلى العالم السفلي أرالو Arallu، وهي مدينة كبيرة يلفها الظلام والتراب، ويعيش فيها الموتى عيشة حزينة كئيبة، يشربون الماء القذر ويأكلون التراب، ولا يمكن التخفيف من هذا البلاء إلا بالقرابين يقدمها أصدقاء الميت وأقرباؤه، الذين لا يزالون على قيد الحياة[٢٨].

ومن هنا يعقب (ديورانت) على فكرة البابليين عن العالم البابلي التحت أرضي بقوله: إن «فكرة البابليين عن الحياة الأخرى، كانت في جملتها. . فكرة أموات منهم قديسون، وأنذال، ومنهم عباقرة، وبلهاء يذهبون إلى مكان مظلم في جوف الأرض»[٢٩].

هذا بينما يحيطنا (دولابورت) علماً باسم آخر لهذا العالم، إضافة إلى (أرالو) في قوله: «وبعد أن يعد الميت إعداده الأخير، يهبط إلى الأدمو، إلى الأرض الكبيرة، مأوى الظلمات. . إلى البيت الذي يدخله الداخل ولا يخرج منه، وهو كما تصفه رحلة عشتار. . موضع من الأرض تخيم عليه الظلمات،

وتحيط به أسوار سبعة، لكل منها باب واحد، والموتى قد نبتت على جوانبهم أجنحة كأجنحة الطيور، يأكلون التراب ويتغذون بالرغام، هذه هي المملكة التي يتزعمها نرجال (عرفناه باسم كور عند السومريين)، والإلهة اللاتو (وتعني اللات وهي مؤنث إل أو إيل).. التي تحت أمرها أرواح الطاعون والأمراض التي ترعى الموت، وتحول في المعتاد دون عودتهم إلى الأرض للإيقاع بالإحياء»[٢٠].

ولكن على ما يبدو أن ما طرأ من تطور في الأوضاع الاجتماعية على الأرض، انتقل إلى ما تحت الأرض، وإلى هناك انتقل التمايز الطبقي الناشىء عن قيام الدولة الملكية المركزية، فنشأ تمايز مماثل في العالم التحت أرضي، جاء في الصياغة السامية لملحمة جلجامش السومرية، وبالتحديد في اللوح الثاني عشر، حيث نجد في هذا العالم:

أمواتا عظماء
وأمواتا حقراء
أغنياء وفقراء
سعداء وتعساء[٢١].

وتبقى هنا مسألة، تثيرها طبيعة اللغة السامية التي تعشقت فيها روافد متعددة، فدخلت البابلية ألفاظ سومرية لفظاً ومدلولاً، وتبودلت المعاني والألفاظ بين مختلف اللغات السامية، لظروف الجوار والغزو، والعلاقات السياسية والاقتصادية وحتى الدينية، مما أدى إلى تشابك لغوي هائل وإن كنا سنحاول التعامل مع الإشكال في أسهل الحدود الممكنة: لقد سبق وعلمنا أن السومريين أطلقوا على عالم تحت الأرض اسم إدّين Edin وتنطق أيضاً الدين وإدِن، وبما نعلمه عن الخلط القديم بين (الميم) و(النون)، يمكن أن تتحول (أدين) إلى (أديم)، ورأينا البابليين يطلقون على العالم التحت أرضي (آدمو) أو (آدم)، وبما نعلمه عن الخلط بين (العين) وبين (الهمزة) تصبح أيضاً (عدم) و(عدن) فيصبح عالم تحت الأرض هو عالم: أدِن، الدين، أدين،

أديم أدمو، آدم، عدم، عدن (ولنلحظ ارتباط المعنى القائم بين مختلف الأسماء فكلها تعطي معنى العودة إلى العدم والأصل وهو التراب أو الأديم، وآدم من تراب وإلى عدم أو إلى أديم، يعود، واللفظ آدم لفظ سامي يدل على أب البشر، جاء في النصوص الأوجاريتية المكتشفة مؤخراً، وهي لغة سامية فينيقية، وكما في ملحمة (كارت ملك صيدون):

أب آدم ويقرب (اي ويقترب الأب آدم).
او ظهر له في الحلم إيل، في رؤياه ظهر أبو آدم(٣٢).

و(آدم) في هذا تعني الإنسان أو البشر، وواضح في النص وراثة الاعتقاد القديم في عبادة الأب الأول، لذلك جاء (إيل) الإله الأعظم في النص كأب للبشرية، وهو الذي لقب في ملحمة البعل الأوجاريتية الفينيقية بأنه:

خالق الخلائق..
خالق الكائنات..
لطفان (كثير اللطف)..
إله الرحمة...(٣٣).

وهي كلها صفات تشير إلى الألوهية ممزوجة بالحنان الأبوي وكان (إل) أو (إيل) يُعَد لدى الفينيقيين الإله الأعلى، ويلقب بـ (العلي) Suprem Good، فهو أبو الآلهة جميعاً، وأبو البشر أيضاً.

وإلى جانب (إل) عبد الفينيقيون إلهاً آخر لا يقل عنه أهمية بل هو أقرب إلى الناس من الأب الأول (إل) عرف في فلسطين باسم بعل، وفي لبنان في فينيقيا باسم (أدونيس Adonis)، الذي هو (آدون) بعد حذف الياء والسين التي تلحق بأسماء الأعلام أو (آدوم) أو (أديم) أو (آدم)، أو (عدم)، أو (عدن).

* * *

الهــوامـش

(١) د. عبد العزيز صالح: سبق ذكره، ص٧٦ .
(٢) كريمر: السومريون. . سبق ذكره، ص٤١٨ .
(٣) صالح: سبق ذكره، ص٤٧٩ .
(٤) بوتيرو: سبق ذكره، ص٩٨ .
(٥) نفسه: ص٩٧ ، ٩٨ .
(٦) ميخائيل: سبق ذكره، ص٢٩٣ ، ٢٩٤ .
(٧) فاضل عبد الواحد: عشتار. . سبق ذكره، ص١٣٤ .
(٨) سليمان التكريتي: أساطير بابلية، مطبعة النعمان، النجف، العراق ١٩٧٢ ، ص٥٩ - ٧٣ .
(٩) ميخائيل: سبق ذكره، ص٣٠٤ .
(١٠) نفسه: ص٢٩٨ .
(١١) د. أنيس فريحة: ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار، ط٢ ، بيروت، ١٩٧٩ ، ص١٠٦ .
(١٢) موسكاتي: سبق ذكره. . ص٨٥ .
(١٣) فريحة: ملاحم. . سبق ذكره، ص١٠٧ .
(١٤) بوتيرو: سبق ذكره، ص٩٦ .
(١٥) د. أنيس فريحة: دراسات في التاريخ، دار النهار، ط١ ، بيروت، ١٩٧٤م ، ص٥١ .
(١٦) ميخائيل: سبق ذكره، ص١٥١ .
(١٧) بوتيرو: سبق ذكره، ص٤٤ .
(١٨) للمزيد حول تقسيمنا النظام الاجتماعي الغابر إلى رعوي يرتبط بسيادة الذكر، وزراعي يرتبط بسيادة الأنثى، ارجع إلى بحثنا، الأضاحي والقرابين، والجذور الاجتماعية سبق ذكره.
(١٩) رشيد: خلق الإنسان. . سبق ذكره، ص١٨ - ١٩ .
(٢٠) ميخائيل: سبق ذكره، ص٣٠٤ .

(٢١) رشيد: خلق الإنسان.. سبق ذكره، ص٢٤ - ٢٥ .

(٢٢) فريحة: ملاحم.. سبق ذكره، ص١٠٩ .

(٢٣) رشيد: خلق الإنسان.. سبق ذكره، ص٢٥ .

(٢٤) ميخائيل: سبق ذكره، ص٣٠١ .

(٢٥) نفسه: ص٣٠٠ .

(٢٦) بوتيرو: سبق ذكره، ص١٣٠ .

(٢٧) نفسه: ص١٣٢ .

(٨٢) موسكاتي: سبق ذكره، ص٨٠ .

(٢٩) ديورانت: سبق ذكره، ص٢٢١ .

(٣٠) ك. دولابورت: بلاد مابين النهرين، حضارة بابل وآشور، ترجمة مارون الخوري، دار الروائع الجديدة، بيروت، ١٩٧١ ، ص١٩٦ .

(٣١) بوتيرو: سبق ذكره، ص١٣٢ .

(٣٢) السواح: سبق ذكره، ص٨٧ ، ١١٨ .

(٣٣) فريحة: ملاحم.. سبق ذكره، ص١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٤١ ، ١٤٧

الباب الثالث

سفر التكوين التوراتي

تأسيس

عندما نبدأ الحديث عن التوراة، فهذا إنما يعني أننا نتحدث عن أخطر الشعوب السامية، ذلك الشعب ذو الأسماء المتعددة: عبريون، يهود، إسرائيليون.

وقد استطاع هذا الفرع من الشعوب السامية، أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه، ويحوز شهرة واسعة في العالم حتى اليوم، نتيجة ارتباط هذا الشعب بالتوراة، تلك المأثرة التي تمكن من إنجازها، وجمع لها مادة دينية هائلة متنوعة، تحت عنوان (الكتاب المقدس BIBLE)، الذي أصبح مصدراً تاريخياً ودينياً لا غنى عنه، للباحث المدقق أو المؤمن المتبتل، على حد سواء، نتيجة كونه الأثر الوحيد الذي وصلنا متماسكاً وشبه جامع لتراث شعوب حوض المتوسط الشرقي بجملة عادات هذه الشعوب وتقاليدها ونظمها الاجتماعية، واعتقاداتها الدينية مع عدد غفير من الأساطير والمتواترات والملاحم والفلكلوريات، لذلك فهو مُعين للمؤمن، كما أنه لاشك مَعين غزير للباحث المنقب أيضاً، لكن مع إشكالية كبرى ناشئة عن كون اليهود قد جعلوا جماعتهم وأربابهم، قطب الدائرة في هذا الكتاب فنسبوا بطولات الملاحم إلى آبائهم الأوائل أحياناً، أو نسبوا أبطال أساطير شعوب أخرى إلى

أنفسهم، وادّعوا النسب السلالي إليهم أحياناً أخرى، فكانت النتيجة، مزيجاً هجيناً من ثقافات شتى، تعود إلى الراسب الثقافي لمجموعة كبرى من شعوب المنطقة تلاقحت جميعاً على صفحات الكتاب، ولعب فيها اليهود دور البطولة المطلقة.

والكتاب المقدس المتداول الآن، هو مجموعة الأسفار التي جمعها اليهود، مع ما أضافه إليه المسيحيون من أناجيل ورسائل مقدسة، وللتفرقة بين المقدس اليهودي، والمقدس المسيحي، داخل الكتاب المقدس، اصطلح على تسمية اليهودي (العهد القديم)، وتسمية المسيحي (العهد الجديد). ومدار بحثنا هو المقدس اليهودي أو العهد القديم، لما تضمنه من تراث شعوب المنطقة.

وقد اختلف الباحثون حول ضبط وتوقيت جمع مادة هذا الكتاب التي كانت متناثرة على المتاح آنذاك من وسائل الكتابة، إضافة إلى ما دخل إليه أثناء جمع المادة من تأليف جديد وترتيب جديد، ويذهب (أنيس فريحة) إلى أنه «كانت مواد أسفار التوراة من شعر وقصص وأمثال وتاريخ وتعليم ديني في بادىء أمرها روايات شفهية متداولة جيلاً بعد جيل، إلى أن قيض لها أن تكون في حدود ٤٤٠ق.م»[(١)].

ويلخص (حسن حنفي) القول في قوله: «إن أسفار الكتاب المقدس لم يكتبها مؤلف واحد، في عصر واحد، لجمهور واحد، بل كتبها مؤلفون كثيرون، في عصور متعاقبة، لجماهير مختلفة المزاج، ويمتد التدوين إلى ألفي عام، وربما أكثر من ذلك»[(٢)].

هذا إضافة إلى الإقرار الواضح في مقدمة الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس لسنة ١٩٦٠، الذي يقول: «ما من عالم كاثوليكي في عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف على وضع النص الذي كتبه عديدون من بعده، بل يجب القول: إن ازدياداً تدريجياً

حدث، سببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية».

وقد حاول بعض العلماء تحديد الفترة الزمنية التي استغرقها زمن تدوين الكتاب المقدس، فطالت المسافة وامتدت مابين بداية القرن العاشر قبل الميلاد وانتهاء بالقرن الأول الميلادي، وذهب هؤلاء إلى أن الأسفار الخمسة الأولى قد كتبت على مدى ثلاثة قرون ابتداء من القرن العاشر قبل الميلاد، أما آخر الأسفار وهو سفر المكابيين الأول، والثاني، فقد حررت خلال القرن الأول قبل الميلاد[٣] .

أما موسوعة تاريخ العالم، التي أشرف على تحريرها عدد لا يستهان به من العلماء، فقد أكدت أن في هذا الكتاب أجزاء ألفت مابين ١١٥٠ ق.م. وبين ١٣٠ ق.م، وأجزاء أخرى كالأسفار الخمسة الأولى، فقد أخذت صورتها النهائية حوالي عام ٤٠٠ ق.م، وتحوي كتابات يرجع تاريخها الشفاهي إلى ستة قرون سابقة على هذا التاريخ، بينما الأسفار التاريخية فقد كتبت سنة ٥٥٠ ق.م مع تصنيفات أخرى للكتاب، قدمت لها الموسوعة اقتراحات بتواريخ مختلفة ومتباعدة تباعداً كبيراً[٤].

وكما هو ملاحظ، فإن أكثر الباحثين يطلق على هذا التراث الهائل اصطلاح التوراة، إلا أن التوراة تقتصر - لوجه الحق - على جزء يسير من الكتاب المقدس، هي الأسفار الأولى منه المنسوبة إلى النبي موسى، وهي: التكوين Cenesis، الخروج Exudus، اللاويين أو الليفيين Levetieis، العدد Numbers، التثنية Deuteronomy ومن الباحثين في العلوم التوراتية، من يدخل في أسفار موسى السفر السادس (يشوع).

ونحن بدورنا سنستخدم هذا الاصطلاح (التوراة) في عملنا هذا، تجاوزاً لأن بحثنا سيتركز فعلياً على الأسفار الست الأولى من الكتاب المقدس.

ومن المهم الإشارة إلى أنه لا يوجد باحث علمي ذو شأن، ذهب وراء القول أنها أسفار موسى، أو أن موسى كتبها، إنما هناك إجماع على أنها ألفت

بعد موسى بقرون طويلة، وأنها نتيجة تصانيف مختلفة، لمؤلفين مختلفين مزاجاً ومشرباً وتدلل مدرسة (فلهــاوزن Willhawsen) على ذلك بأدلة أهمها وأخطرها أن اسم الإله يختلف في هذه الأسفار مابين سفر وآخر، إضافة إلى تكرار القصص فيها، مما يشير إلى عدد من الكتاب لم يلتقوا لتصفية الأمر بينهم، مع فروق واضحة وجوهرية وعميقة في اللغة وفي الأسلوب بين هذه الأسفار [٥].

والتوراة تبدأ تاريخ اليهود منذ فجر الإنسانية على الأرض، فتأتي بشجرة النسب اليهودي من جذورها الأول المسمى في اللغة العربية (آدم)، ومنه تشعبت الأنساب شعاباً، أهمهم في التوراة فرعاً من الشجرة البشرية هو الفرع السامي، بل هو غصن في هذه الشجرة هو الغصن اليهودي، أو كما يحلو لهم أحياناً تسمية أنفسهم الشعب العبري، واللغة المنسوبة لهذا الشعب وكتب بها أهم أجزاء التوراة، هي المعروفة باللغة العبرية، بينما العبرية هي ما عبرت عنها التوراة بأنها (شفة كنعان) أي لسان الكنعانيين، حتى أن الكلمة آدم قد عرفناها قبل التوراة كلمة كنعانية فينيقية في مدونات (أوغاريت).

ولنلحظ أن التوراة لم تحاول أن تنكر أن لسانها مأخوذ عن لسان الكنعانيين ولم تحاول أن تنكر أنه قد سبقهم في هذه الأرض شعباً هو الشعب الكنعاني وأطلقوا على الأرض في التوراة أرض الكنعانيين، المظنون أنها فلسطين الحالية ويزعم الباحثون أن الكنعانيين رغم أنهم أسبق في التواجد بفلسطين، فإنهم بدورهم كانوا هجرة قدمت إلى فلسطين من شبه جزيرة العرب حوالى ٢٥٠٠ ق.م.

وإذا كان منهجنا في البابين السابقين، قد حاول أن يربط بين تطور العبادات في بلاد الرافدين وبين التطور الاجتماعي والسياسي والشكل الاقتصادي، فإن مثل هذه المحاولة مع التاريخ اليهودي أمر يستعصي على البحث تماماً، لعدة أسباب أهمها:

مشكلة التتبع الزمني الصادق لأسفار التوراة، التي لم يراع في ترتيبها منهج محدد.

الغموض الذي أحاط بمعاني الألفاظ التوراتية، ومقصد التوراة الحقيقي منها، وهو أمر فيه جدال وخُلف كبير، بين الباحثين التوراتيين مما أدى - حتى الآن - إلى تباعد شديد في تفسير النص الواحد، بل وأحياناً الكلمة الواحدة، إضافة إلى أن التوارة تغص بأسماء أماكن قديمة على خريطة المنطقة، يصل عددها إلى الآلاف، لم يستطع عالم جاد واحد حتى اليوم، أن يجزم بالمكان الحقيقي الصادق، ولو لعشر منها فقط، كما لم تعطنا البحوث الأركيولوجية، ولا أي حفريات، دلائل صادقة على موضع قديم يمكن القول المؤكد أنه موضع الآن في فلسطين المظنون أنها كنعان التوراتية.

وزيادة على ذلك، ونكاية في إخلاص الباحث الجاد، نجد مدونات التوراة قد ظلت زماناً طويلاً خالية من التنقيط والتشكيل، إضافة إلى اختلاط النطق في الحروف العبرية ذات المخرج الواحد: الشفاه، الأسنان، الحنجرة، اللسان، الحلق، مع غياب الأزمنة: الحاضر الماضي الناقص، الماضي التام، المستقبل السابق في الصيغة الإخبارية، ناهيك عن غياب الحروف المتحركة، ولم يتم وضع ذلك كله إلا أيام الحشمونيين قبل الميلاد بحوالي قرنين من الزمان، وفق قواعد اللغة الآرامية، مما أدى إلى لبس وأخطاء لا مزيد عليها، مما يجعل قراءة أي كلمة اليوم في التوراة، موضع حذر وشك كبير[٦].

إن اليهود لم يكونوا خلال تاريخهم جماعة واحدة مستقرة في مكان واحد إنما كانوا جماعات مختلفة، مرتحلة دوماً إلى جهات مختلفة، مابين الرافدين وجزيرة العرب وكنعان وحاران ومصر. . الخ، حتى دولتهم التي قامت مع بداية الألف الأول قبل الميلاد لم تستمر في الوجود زمناً مناسباً يسمح بنضوج أو تطور اجتماعي واضح محدد البصمات، يمكن للباحث تتبعه.

إن عدم الاستقرار في مكان واحد مدداً طويلة، أدى إلى تغيرات مستمرة

في العقائد والعبادات، التي أخذت تصطبغ مع كل ارتحال بألوان متعددة، فجاءت ديانتهم بعد جمعها مزيجاً متنافراً من الألوان عديمة الاتساق والتمازج، مما أدى بباحث متحيز لليهود مثل (ايفارلسنر) إلى القول عما خرج به من دراسة الكتاب المقدس: «إن تابوت العهد يعود بنا إلى مساكن آلهة النيل المتنقلة، وآثار السحر ترجع بنا إلى مصر كما تذكرنا قصة الطوفان والأرقام الغامضة ببابل، ويصير الإله البابلي جلجامش نمروداً، وتصبح ثيران آشور المجنحة كروبيم العبريين، كما أن أسطورة الجنة وشخصية الشيطان أهريمان، وعالم الملائكة ورؤساء الملائكة تعيد إلى أذهاننا بلاد الفرس، ونتعرف على البعل إله الفينيقيين والكنعانيين في أسماء إشبعل ومربعل لقد كان الفلسطينيون الذين يحتمل أن يكونوا قد وفدوا أصلاً من كريت، ينظرون إلى اليمامة أصلاً كإله، أما السمكة التي عُبدت في عسقلان فتظهر في قصة يونان»[٨].

تاريخ اليهود في التوراة:

تزعم التوراة أن اليهود هم نسل إثني عشر ولداً هم الأسباط، أبناء النبي (يعقوب) المسمى (إسرائيل)، ومن هنا سموا (بني إسرائيل)، وحتى تجعل التوراة من هذا النسل خلاصة البشرية، ومدار حديثها المقدس فإنها تجري تصفيات عجيبة بين الشعوب، سنلاحظها مع خطونا داخل التوراة.

تبدأ التوراة تاريخ اليهود بالعودة إلى بداية الإنسانية لإنسانيتها على الأرض، فتحكي لنا رواية تقول: إن الله خلق زوجين من البشر، ووضعهما في مكان أطلقت عليه (جنة عدن)، وإن هذا المكان كان على هذه الأرض ذاتها، لكن الزوجين البشريين ارتكبا خطيئة عظمى، عندما عصيا أوامر الإله في أمر هائل؟ فقد أكلا من ثمرة شجرة حرمها عليهما!! فثارت ثائرة الإله، وطردهما من هذا المكان إلى مكان آخر على الأرض، شرقي عدن.

وأنجب الزوجان البشريان الأوائل، اثنين من الذكور هما هابيل الذي اشتغل بالرعي، وقايين الذي عمل في الأرض فلاحاً (ويبدو أن ذلك تسجيلاً قديماً لبداية التخصيص في العمل، وفق ظروف البيئة، والصراع الذي نشأ بين هذين النظامين) وقام الأخوان يقدمان للإله القرابين لإرضائه، فقدم هابيل من لحم غنمه، وقدم قايين من زرع أرضه، وكما سيتضح فيما بعد، فإن الإله كان على ما يبدو من اللواحم، فقبل قربان هابيل، ورفض قربان قايين (والتحيز هنا واضح للبداوة والنظام الرعوي، ولنتذكر أن اليهود بدو رعاة)، مما أوغر صدر قايين الفلاح، على أخيه الراعي، فقتله، ثم يختفي ذكر قايين من التوراة، ليظهر ابن ثالث لأبي البشرية المدعو آدم، هو (شيث)، ومن شيث تناسلت البشرية وتكاثرت على الأرض. (وهكذا كان واضحاً أن دور هابيل وقايين لم يكن له أي علاقة بالتكوين، بعد أن مات هابيل وتبعه قايين وجاءت البشرية من أخ ثالث هو شيث وهو ما يؤكد أن قصتهما إن هي إلا تسجيل بدئي وتفريق بين نظامين، أقربهما إلى الإله هو الرعوي).

ومرة أخرى يعصي النسل البشري ربه، فيقرر الرب إفناء مخلوقاته العاصية دوماً، بالطوفان، ورغم تأكيد التوراة المتواتر على ندم الإله المستمر لخلقه البشر، فإنه مع ذلك، يضمر بينه وبين نفسه الإبقاء على بذرة الحياة، فيختار من بين نسل (شيث) فرداً واحداً هو (نوح)، ويخبره بقرار الدمار الذي انتواه، ويأمره أن يصنع فلكاً، ويجمع فيه من كل الأحياء، وأن يأخذ أبناءه معه، وتستمر القصة فتعلمنا بتفجر الأرض بالعيون، وتفتح أبواب السماء بماء منهمر، مما أدى إلى طوفان عاتي، حمل السفينة النوحية بركابها، الذين تم اختيارهم عشوائياً، بينما فنى كل حي آخر على البسيطة، وانتهى الأمر بالسفينة بعد هدوء الغضب الإلهي، إلى التوقف فوق جبل (أرارات)، قرب بحيرة (فان)، إلى الشمال من بلاد الرافدين، داخل بلاد أرمينيا.

ثم تأخذ التوراة طريقها في تمييز النسل اليهودي المرتقب، كسيد للبشرية

وشعب خاص من بين الشعوب الأخرى، فتقول: «وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك: ساماً، وحاماً، ويافث، وحام هو أبو كنعان، وهؤلاء الثلاثة هم أبناء نوح، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض ـ تكوين ٩ ـ ١٤ ـ ١٥».

ولأن اليهود يعدّون أنفسهم ـ في الأسطورة ـ أبناء سام، فكان لابد من التصفية، التي بدأت باستبعاد حام وبنيه من التاريخ المقدس، وهو في التوراة أبو كل من: (كوش) أو الأحباش، (ومصرايم) أبو المصريين و(كنعان) أبو الكنعانيين، أصحاب الأرض المطلوب الاستيلاء عليها، لبني سام. ولا مجال للاستبعاد، إلى أن يأتي حام وبنيه منكراً، لخصته التوراة في القول: إن نوحاً بعد هبوطه من السفينة، قد شرب خمراً حتى ثمل، وتعرى من ثيابه ثم غاب عن وعيه «فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه.. فأخذ سام ويافث الرداء.. وسترا عورة أبيهما.. فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته، وقال مبارك الرب إله سام، ليفتح الله ليافث، فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبداً لهم ـ تكوين ٩ ـ ٢٠ : ٢٧».

وواضح من هذه التصفية الأخلاقية، والتي كان الملام فيها أصلاً ـ حسب الرواية التوراتية ـ نوح ذاته، القصد باستبعاد الكوشيين الأحباش والمصريين من التركة المقدسة، مع التركيز على استبعاد كنعان ابن حام بوجه خاص مع خصه باللعنة والعبودية لسام، رغم أنه لم يشاهد العورة النوحية ولم يرتكب ذنباً، إنما كان الذنب ذنب الجد الذي سكر، وذنب الأب حام الذي شاهد هذه العورة وعاينها.

ثم تمطر التوراة بركاتها على الابن سام بالتحديد والخصوص، بحسبانه الجد البعيد لليهود، ثم تركز جهودها بعد ذلك، وطوال أسفارها حول نسله المجيد، فتخبرنا أنه أنجب كل بني عابر وتعدد بني عابر بأنهم: (عيلام) أبو

الإيرانيين، و(آشور) أبو الرافديين، و(أرفخشد) أبو الأرمينيين. ثم تصطفي من بينهم (أرفخشد) الذي أنجب شالح، وأنجب شالح عابر، وأنجب عابر فالج، ويقطان أبو حضرموت (ولا ندري سراً لهذا الخلط بين أناس يعيشون في أقصى الشمال، في (أرمينيا)، وأناس يعيشون في أقصى الجنوب، في (حضرموت)؟!

(عند مراجعتنا للبروفة الأولى لطباعة هذا الكتاب كنا قد انتهينا من كتاب: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول ـ دارسين، ونظن أننا قد كشفنا فيه السر وراء هذا الخلط).

أما فالج أخو يقطان، فقد كان هو الفرع المبارك في الشجرة المباركة فهو جد النبي (إبرام) أو (إبراهيم). الذي أنجب بدوره إسماعيل وتقرر التوراة استبعاد إسماعيل، فتقول: إن إبراهيم قد أنجبه من جاريته هاجر، وأن الأمر لم يرق لسارة زوجة إبراهيم، فأمرت بطرد الجارية وولدها فأخذهما إلى بادية من البوادي، وتركهما هناك، حيث ترعرع إسماعيل واستوطن في تلك البوادي نهائياً، تاركاً الأرض للنسل الآتي، فقد أنجبت سارة ـ حسب الرغبة التوراتية ـ إسحق الذي استبقى في المصفاة التوراتية ليكون جداً لليهود.

وأنجب إسحق ولدين هما: (عيسو) البكر، ثم (يعقوب)، وحسب منطق القواعد السامية، كان المفترض أن يكون البكر (عيسو)، هو وريث النبوة والأرض والأملاك، لكن الذي حدث في التوراة هو العكس، بعد أن استخدمت مصفاتها مرة أخرى لاستبعاد البكر، واستبقاء آخر العنقود (يعقوب)، الذي سيكون هو (إسرائيل) أبو الأسباط أو بني إسرائيل، وقد أوردت التوراة ذلك في أسلوب طريف، في قصة أطرف، لا يصح تجاوزها.

تقول القصة:

فكبر الغلامان، وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد، إنسان برية ويعقوب

إنساناً كاملاً يسكن الخيام، فأحب إسحق عيسو، لأن في فمه صيداً، وأما رفقة (الأم) فكانت تحب يعقوب.. وحدث لما شاخ إسحق وكلّت عيناه عن النظر، أنه دعا عيسو ابنه الأكبر فقال: هأنذا، فقال: إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي فالآن خذ عدتك، جعبتك وقوسك، واخرج إلى البرية وتصيد لي صيداً، واصنع لي أطعمة كما أحب، وأتني بها لآكل، حتى تباركك نفسي قبل أن أموت، وكانت رفقة سامعة.. فكلمت يعقوب ابنها قائلة.. يابني اسمع لقولي.. إذهب إلى الغنم، وخذ لي من هناك جديين جيدين من المعزى، فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب، فتحضرهما إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته فقال يعقوب لرفقة أمه: هوذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس، ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون، وأجلب على نفسي لعنة لا بركة.. فأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة.. وألبست يعقوب ابنها الصغير، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديي المعزى، وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها، فدخل إلى أبيه وقال ياأبي فقال ها أنذا من أنت يابني، فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك، فقد فعلت كما كلمتني، قم إجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك فقال إسحق لابنه ما هذا الذي أسرعت لتجد يابني؟

فقال: إن الرب إلهك قد يسر لي؟!!

فقال إسحق ليعقوب: تقدم لأجسك يابني، أأنت هو عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه، فجسه.. ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه.. فقال له إسحق أبوه: تقدم وقبلني ياابني، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه، وقال: أنظر رائحة إبني كرائحة حقل قد باركه الرب، فليعطك الرب من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر، ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل، كن سيداً لإخواتك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين، وحين فرغ إسحق من بركة يعقوب.. أن عيسو آخاه آتى من صيده.. فعندما سمع

عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً، وقال لأبيه: باركني أنا أيضاً ياأبي، فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك. (تك ٢٧ ـ ١ : ٣٥)..

حقيقة أن هذا النص ذكري وتسجيل واضح للتطور التاريخي الاجتماعي فقد قرر انتهاء زمن الصيد والمجتمع غير المستقر، وظهور المجتمع المستقر (عيسو كان إنساناً يعرف الصيد، إنسان برية، ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام)، ورغم تمسك الأب بالصيد والنظام القديم، فقد كان لابد من الانتقال ولو بالخديعة.

المهم أن التوراة وهي تجري التصفيات النهائية بين الشعوب، لتصل إلى الشعب اليهودي، تجعل يعقوب أهم آباء اليهود بعد إبراهيم، نتيجة حدث خاص تعرض له يعقوب، يفسر لنا سر تمسك الإله بهذا الشعب كمختار له دون البشر، إذ أن يعقوب التقى بالرب ودخل معه في معركة انتهت لصالح يعقوب، أو كما تقول التوراة:

فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته، معه، وقال اطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له: ما أسمك؟ فقال: يعقوب، فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت، وسأله يعقوب وقال: أخبرني باسمك، فقال لماذا تسأل عن اسمه، وباركه هناك، فدعا يعقوب اسم المكان فينيئيل، قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي، وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه، لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي على الفخذ إلى هذا اليوم، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا. (تك ٣٢ ـ ٢٢ :٣٢).

وهكذا تحول الإسم (يعقوب) إلى (إسرائيل)، أو (صراعئيل) أو مصارع الرب أو الذي صرع الإله، وأنجب (إسرائيل) اثني عشر ولداً هم الأسباط

بني إسرائيل، وكان أشهرهم أصغرهم سناً وأكبرهم شأناً (يوسف).

أما مصدر شهرة يوسف فهو أنه كان جميلاً جمالاً فتاناً؟! والثاني أنه كان كثير الأحلام؟! والثالث أنه كان مفسراً أيضاً للأحلام؟! مما أثار موجدة إخوته الذين كادوا له، حتى انتهى بكيدهم عبداً في بلاد مصر لكن قدرته على التبصير وقراءة الطالع في الأحلام، أدت إلى ذيوع صيته في البلاط الملكي، حتى تمكن بقربه من صاحب العرش أن يصبح وزيراً لخزانة المصريين، وبهذا المركز تمكن من استجلاب أبيه وإخوته إلى مصر، في وقت حل فيه الجفاف بالأرض، وفي مصر عاشوا زماناً تكاثروا فيه وتناسلوا وعلا شأنهم.

لكن الحال لم يستمر على حاله، فقلب لهم الفراعنة ظهر المجن، واتخذوهم عبيداً مسخرين في الأعمال الشاقة، حتى ظهر (موسى) النبي وهو في زعم التوراة أحد أحفاد سبط (ليفي) أو (لاوي) أحد أخوة يوسف وهو الذي قدر له قيادة اليهـود للهروب من مصر إلى كنعـان، في أشهر الـرحلات في التاريخ، تلك المسماة (رحلة الخروج).

وقد قدر لهذا النبي أن يكون صاحب مغامرات كبرى شهيرة، منذ ميلاده حتى مماته، فقد ولد في ظروف صعبة، كان مطلوباً فيها بأمر فرعون مصر، قتل من يولد في هذا العام من ذكور، فألقته أمه في اليَمْ لكن أقدار (الميلودراما) ساقته إلى قصر فرعون حيث عثرت عليه ابنة فرعون، فاتخذته لها ربيباً، لكنه كان يعرف أصله العرقي، مما دفعه يوماً للانتصار لأحد اليهود من بني جلدته، فقتل بسبب انتصاره لعصبيته مصرياً دون أن يتحقق حتى من موضع الحق، فكان أن طلبه القانون للقصاص فهرب إلى بلاد تسمى (مديان)، حيث التحق هناك بضيافة كاهنها المدعو (يثران)، وصاهره فتزوج ابنته، وهناك قابله رب اليهود في جبل أسمته التوراة جبل الله (حوريب)، حيث أمره بالعودة إلى مصر، مدعماً بعدد من الخوارق، ليقود شعبه المختار من مصر في رحلة خروج، أو رحلة عودة إلى كنعان.

ويظن المؤرخون أن بداية بني إسرائيل الحقيقية، هي مع رحلة الخروج حوالي ١٢٠٠ق.م، بعد أن قضوا في مصر حوالي أربعة قرون، لكن موسى لم يحظ بدخول أرض كنعان، حيث تخبرنا التوراة أنه قد مات ودفن وهو من أرض الميعاد قاب قوسين أو أدنى، وخلف على القيادة رجل دموي، هو (يشوع بن نون)، الذي اشتهر بالقسوة المرعبة، وبمعجزات كالمعجزات الموسوية كفلق البحر، لكنه زاد عليه بالتخصص في معجزات يشوعية، منها إيقاف الشمس والقمر في مكانيهما، حتى يتمكن من الانتصار على أعدائه.

ومن بعد يشوع، استمر اليهود يعيشون زماناً، على هامش حياة الكنعانيين في الوقت الذي يزعم فيه الباحثون قدوم أقوام إيجية من جزيرة كريت، باسم الفلسطينيين، ليستوطنوا الساحل الكنعاني، ويكسبوا أرض كنعان اسمها (فلسطين)، مما خلق أمام اليهود عقبة جديدة، فبدأ صراع طويل بين الشعبين، استطاع اليهود بعد انتصارهم فيه، أن يقيموا لهم ملكاً ودولة، كان أول ملوكها (شاؤول) ثم تلاه على العرش الملك (داود)، الذي استطاع أن يكسر شوكة الفلسطينيين بشكل حاسم، مما أتاح للدولة الناشئة الاستقرار، وهيأ لوريثه الملك (سليمان) الفرصة ليبلغ بالدولة أوج شهرتها.

ويقول (موسكاتي) إن داود «أعاد إلى اسرائيل حظها الضائع وكان جلوسه على العرش حوالي عام ١٠٠٠ق.م/ وكان قد بدأت بتكوين دولة صغيرة خاضعة للفلسطينيين، ولكن مقدرته في الحرب والسياسة معاً اكسبته الاستقلال، وأقامته ملكاً على اسرائيل مكان أسرة شاؤول وبالاستيلاء على القدس، واستعادة تابوت العهد، صار للدولة الناهضة من جديد، مركزها السياسي والديني. . وكان سليمان بن داود. . شديد الاختلاف عن أبيه، فقد أحدث تغييراً جوهرياً في كل حياة المملكة وأعاد تنظيم المملكة على نمط الممالك المطلقة السلطان، في الشرق الأدنى القديم، فالأبهة والترف في البلاط، وكثرة الزوجات والجواري التي كانت تتطلبها اعتبارات الدبلوماسية والسمعة، والتي قدر كما تقول التوراة أن تشغل قلب الملك، ثم ازدياد مؤامرات

القصور. . اضطرت سليمان إلى إقامة نظام من الضرائب، ألقى على شعبه عبئاً ثقيلاً. . وكان إنشاء المعبد الكبير في أورشليم القدس، أشهر ما قام به سليمان من أعمال عامة، وقد ضم هذا العمل الفخم عناصر قيمة من كنعان فينيقية وغير فينيقية، وكذلك من مصر وأرض الرافدين. . وانتهى نفوذ العبريين بموت سليمان»[١٠].

وقد قيض الملك سليمان، أن يحوز في مقدسات المنطقة وتاريخها، بشهرة لا تضارع، ربما لأنه أشهر ملوك اليهود، وربما لأنه ضرب بالأنبياء المتنبئين عرض الحائط - كما تقول التوراة - ولم يسر وراء الشعوذات وركز اهتمامه في الشؤون الدنيوية وفق خطط عقلانية، فتغنوا بحكمته وربما أضاف إلى ذلك ميوله الفنية التي دفعته إلى بناء قصره، والهيكل وفق أحدث الطرز المعمارية، فجلب لهذا الغرض فنانين من مختلف الأقطار المحيطة بدولته، وأشرف بنفسه على عمليات البناء والنحت والتشكيل والتجميل والنقش.

أما الباحث أحمد سوسه فيقول: «أما الوصف الذي اعتاد الباحثون ترديده عن اتساع وامتداد حدود مملكة سليمان فيعده أكثر الباحثين من قبيل المبالغات، التي درجت عليها دويلات تلك العصور، والحقيقة أن مملكة سليمان التي تبجح بعظمتها، كانت أشبه بحمية مصرية مرابطة على حدود مصر، قائمة على حراب أسيادها الفراعنة. . وكان سليمان يريد أن يجاري الفراعنة في البذخ، والظهور بما هو فوق طاقاته وامكانياته الاقتصادية. . فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب. . ولما عسر على سليمان أن يحتل أرض الفلسطينيين الساحلية، طلب معونة فرعون مصر، فأرسل جيشاً مصرياً صغيراً احتلها له وسلمها إليه، مهراً لابنته.

ثم يتساءل (سوسة): «كيف صور كتبة التوراة مملكة سليمان، صورة تفوق الواقع بكثير. . فسليمان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكاً صغيراً يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال، بحيث لم تنقض

بضعة أعوام على وفاته، حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم».

ويجيب (أحمد شلبي) على التساؤل، فيوضح الأسباب التي أدت إلى هذه الشهرة بقوله: «إن أمور مصر في عهده كانت مرتبكة، فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور الدولة الآشورية مرتبكة كذلك، وقد منح هذا لداود شيئاً من حرية الحركة والنشاط، والتبسط في ممارسة السيادة»، أما ما جاء عن «قصة ملك سليمان وحكمته»، التي أوردها الكتاب المقدس، فقد تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع، على يد كاتب متأخر شغوف بالمبالغة، في وصف رخاء عصر سليمان، مولهاً بتمجيد حكمه.. وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحي، بل والإسلامي، على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة.. لكن الحق، أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحوتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو نبوخذ نصر، فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهينات.. أما مملكته فهي رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا، وترجع أهميتها في معظم أمرها، إلى ضعف مصر المؤقت[11]. (ومن المناسب أن نوضح من جانبنا أنه لم يكتشف نص واحد حتى الآن، لا في مصر، ولا في نصوص الرافدين، يشير من بعيد أو قريب، إلى ملك باسم سليمان أو داود أو شاؤول، وهو أمر غريب بالقياس إلى ما أدعته التوراة عن شهرة المملكة السليمانية!!).

والمهم أن هذا النفوذ السليماني المزعوم، قد انتهى بانقسام المملكة من بعده إلى دويلتين: واحدة في الشمال سميت إسرائيل وعاصمتها السامرة، وأخرى في الجنوب سميت يهوذا وعاصمتها أورشليم، ولم تلبث المملكة الشمالية أن وقعت في قبضة الرافديين الآشوريين، بعد أن سحقها العاهل الآشوري سرجون الثاني، بينما انتهت المملكة الجنوبية يهوذا إلى المصير ذاته على يد العاهل البابلي الكلداني نبوخذ نصر الثاني، وذهب ألوف من كليهما

أسرى إلى بابل وآشور، وهناك ظلوا في الأسر حوالي أربعة قرون.

وفي العقود الأخيرة من القرون الأربعة ظهرت في الأفق دولة كبرى جديدة في إيران هي دولة الفرس، بقيادة رجل حديدي غير عادي هو (كورش)، الذي اتجهت طموحاته إلى الاستيلاء على بلاد المشرق وتكوين إمبراطورية كبرى وكان لحنكته السياسية دورها الحاسم في تحقيق أحلامه، فقد قبل عروضاً بتعاون اليهود وعلى رأسهم (أشعيا) و(إرميا)، بموجب شروط ومطالب محددة لليهود، وعلى رأسها تحريرهم من الأسر وعودتهم إلى أرض كنعان لإقامة هيكلهم ودولتهم مجدداً، مما انتهى بفتح أبواب بابل للفرس.

و«يخبرنا المؤرخ اليهودي يوسفيوس أن كورش أرجع كل انتصاراته إلى الرب الذي يؤمن به اليهود، لذلك صمم على إعادة بناء بيت له في القدس.. وتشير المصادر اليهودية إلى أن كورش قام بإعادة اليهود المرتحلين من بابل إلى القدس مجدداً خلال العام الأول من احتلاله له، ولقد فرح اليهود بذلك واعتبروه المسيح المنتظر ونقرأ في سفر إشعيا: هكذا يقول الرب لمسيحه كورش... الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وملوكاً.. لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك إليه، إسرائيل (اشعيا ٤٥ ـ ٣) ويقول العهد القديم بأنه تزوج استر اليهودية وجعلها ملكة على بابل»[(١٢)].

ورغم أن (قورش Cyrus) قد حاز في التوراة على كل اصطلاحات الود، فأصبح هو (المسيح) وهو (راعي اليهود ـ أشعيا ٤٤ ـ ٢٨)، وناداه رب اليهود باسمه، فإن سفر اشعيا يؤكد أن (قورش) لم يعرف رب اليهود (أشعيا ٤٥ ـ ٤ ، ٥)، إلا أن المهم في الأمر هو إصدار قورش سنة ٥٣٨ق.م، قراراً برجوع اليهود إلى الأرض المقدسة، وإعادة بناء معبد أورشليم الذي ظل قائماً حتى دمره الرومان نهائياً حوالي عام ٧٠ م.

الآلهة التوراتية:

وهكذا لا يعود مستغرباً أن نجد الدين اليهودي قد مر بأطوار لا يحكمها منطق محدد، قدر ما تحكمها ظروف أخرى أهمها التأثر بمختلف عقائد شعوب البلدان التي عاش فيها اليهود أزماناً طويلة، سواء في البلاد الكنعانية أو المصرية أو الرافدية، أو أي موطن آخر استقروا فيه بضعاً من الزمن، ومن هنا يمكن لأي باحث ـ بقليل من الجهد ـ أن يجد في التوراة مآثر مصرية وأخرى رافدية وثالثة فينيقية، أو أن يجد طبيعة التأليه تتضارب مابين التأثر بآلهة الخصب والزرع والري، وبين آلهة الصحراء والجبال والبراكين، وبين فجاجة الاعتقادات والطقوس الابتدائية، وبين قمة التطور في مفهوم الألوهية نحو المطلق، وكله في آن واحد، يتناثر دون تنظيم محدد على صفحات التوراة فيشكل خليطاً عجيباً دونما رابط ولا زمام، ولا مراعاة لمنطق التطور الزمني أو الاختلاف المكاني، ولا يبقى أمام الباحث سوى أن يلقي بنفسه وسط هذه الأحبولة ذات المائة وجه والألف لون.

ولا نزعم أنه بامكاننا ترتيب الأمر كله دفعة واحدة، وإلا كان ذلك سذاجة مفرطة، وإنما غاية ما نزعمه هو الإخلاص في المحاولة مع الإشكاليات التي قد تعترضنا، على أن تتم هذه المحاولة على خطوات، مع كل خطوة نخطوها في بحثنا، في هذا التل المختل من الأحاجي والطقوس والاعتقادات والنظم والتاريخ الباطل منها والصحيح.

وسيراً مع خطتنا التي اتبعناها في البابين السابقين، سنحاول فهم طبيعة التأليه في التوراة، وهنا يقول لنا (إيفارلسنر): إن سفر التكوين ينسب جزءاً من عملية الخلق إلى إله يدعى (إلوهيم Elohim) بينما تنسب جزءاً آخر إلى إله يدعي (يهوه Jehovah)[١٦] ورغم تبسيط (لسنر) للمسألة وتسطيحها، فإننا سنقف مع هذين الإلهين (إلوهيم) و(يهوه أو جاهوفاه) وقفة تفصيلية بعض الشيء:

والإسم (إلوهيم) هو جمع للإسم (إيل) أو (إل) الذي عرفناه عند الساميين في الرافدين والهلال الخصيب، وهو الإله الذي استمر وجوده في التوراة متواتراً، طوال عصر الآباء البطاركة من (إبراهيم) النبي والممتد عبر أبنائه وأحفاده حتى ظهور النبي (موسى) ومع (موسى) يبدأ (يهوه) في الظهور، بعد أن التقى بموسى في (مديان) وهو هارب من مصر، بعد جريمة قتله المصري ظلماً، حيث قال له: «ظهرت لإبراهيم واسحق ويعقوب بإني الإله القادر على كل شيء، وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم» (خروج ٣٦ - ٣).

وهنا قصد واضح من التوراة للتفرقة بين عهدين عهد عُبد فيه الإله باسم (إيل) طوال عصر الآباء الأول، ثم عصر جديد يبدأ مع موسى يظهر فيه الإله باسم (يهوه) وبما أن المفترض في سفر التكوين كقصة للخليقة، أن يكون أقدم بعصور وأزمنة بعيدة عن عهد موسى، ويعود إلى عصور موغلة في القدم، فإن (يهوه) يظهر فيه ليقوم بجزء من عملية الخلق، في عدة مواضع، مما حدا بالباحثين إلى الظن أن هذا السفر قد كتب بعد عهد موسى بزمان طويل، أما نحن فنرى في ذلك تأليفاً بين قصتين للتكوين إحداهما قصة عتيقة قام بها بدور البطولة مجموعة من الأبطال من الآلهة القديمة عبرت عنهم التورات باسم الجمع (إلوهيم)، كل منها (إيل)، وهي الآلهة التي رافقت العهد الإبراهيمي في التوراة، وقصة أخرى أحدث، قام فيها بدور البطولة الإله (يهوه)، الإله الذي أرفقته التوراة بالعهد الموسوي ومابعده حتى اليوم.

وقد سبق وعلمنا أن (إل) كان اسماً جلالياً منتشراً على نطاق واسع بين جميع الشعوب السامية، وعرفته القبائل السامية الضاربة على سواحل المتوسط الشرقية، ووصفته ملحمة البعل الأوغاريتية الفينيقية بأنه «إيل أبو السنين» و«خالق الخلائق»، «ثورايل»، «مقام إيل عند نبع النهرين»[(١٥)] وهي اشارات تدل على مستوى تطوري رفيع بلغه (إيل)، حيث تحول من إله فرد ضمن مجمع إلهي، إلى أب رفيع الشأن وإلهٍ للزمان (أبو السنين)، وتدل أيضاً على

مستوى رفيع من التجريد لدى هذه الشعوب، مما أدى به إلى التحول إلى رمز جلالي يطلق على أي معبود، ومن إله بذاته إلى اسم مجرد يعني الإله أو الله، مما انتهى بالباحثين إلى اعتبار (إل) علماً إلهياً عرف في كل العبادات السامية بلا استثناء[١٦]. خاصة بعد أن تأكد لدى الباحثين في آثاريات جزيرة العرب أن (إل) كان معبوداً معروفاً قديماً ومنتشراً في كل بقاعها[١٧].

ورغم أن (موسكاتي) يرى أنه كان شخصية إلهية غامضة[١٨] فإن (ديتلف نيلسن) الباحث والآثاري في آثاريات جزيرة العرب، يؤكد أن هذا الإله كان متواجداً باستمرار في جميع النقوش التي عرضت له، وأنه كان ذا دلالة عامة (اسم جلالة) لكن (نيلسن) يشير في الوقت ذاته، إلى أنه قد عرضت له نقوش، ظهر فيها (إل) كدال على إله خاص محدد مفرد[١٩] مما يدعونا إلى افتراض أنه ابتدأ كإله خاص، ذي دلالة طبيعة محددة، مثل (آن) السومري، نظنها السماء، ثم تحول إلى رئيس لمجمع إلهي، ثم مع التطور انتهى إلى اسم جلالي ذي دلالة عامة[٢٠].

ورغم أن البادىء في سفر التكوين التوراتي، أن (إل) إله مفرد ذا دلالة محددة، كما في التأكيد أن «إيل إله إسرائيل» (تكوين ٢٣ - ٢٠)، وأنه كان له موضعاً مقدساً حمل الاسم السامي (BIT)، فأصبح هو «إله بيت إيل» (تكوين ٣١ - ١٣)، فإن الباحث في التوراة يجده في مواضع أخرى كثيرة، اسماً ذا دلالة عامة، وأنه استخدم للدلالة على عدد من الآلهة كل منها (إل) أو إله، تعاصرت في العهد الإبراهيمي، كونت مجمعاً كان له إله رئيس أو كبير ميز بلقب (الرب الإله)، ويمكن أن نفهم ذلك من نصوص عديدة، منها مثلاً:

«وسمعا (آدم وحواء) صوت الرب الإله ماشياً في الجنة»
«فنادى الرب الإله آدم وقال: أين أنت؟»
«فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟»
«فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت» (تكوين - ٣).

أو ما نجده في النص الذي يحكي عن موقف الرب الإله من أبوي البشر، بعد أن أكلا من ثمرة المعرفة المحرمة بأمر الإله، وخشية الرب الإله أن يتطاول آدم وحواء أكثر، ويتناولا من ثمرة الخلود ويعيشا إلى الأبد كالآلهة، يقول النص على لسان الرب:

«هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير
والشر، ولعله يمد يده الآن ويأخذ من
شجرة الحياة أيضاً، ويحيا إلى الأبد.

والتعبير (كواحد منا) يشير بوضوح إلى مجمع من الآلهة الخالدة يقف فيه الرب الإله متحدثاً، ومثل هذه الإشارات كثير التكرار في التوراة، ومنها مثلاً عندما خشي الإله البشر، الذين قاموا يبنون برجاً صاعداً إلى السماء وحتى لا يقلقون راحته، السماوية فقد بلل ألسنتهم وفرقها كي لا يفهمون بعضهم بعضاً، ويتفرقون عن البناء، فقام يقول:

هلم ننزل ونبلبل ألسنتهم
تكوين ١١ ـ ٥ : ٨ .

وغالباً ما حددت التوراة الإله في مجمع من ثلاثة شخوص، كما في قصة ذهاب الرب إلى النبي إبراهيم، لزيارته وتبشيره بغلامه إسحق، وإبلاغه بقرار تدمير أهل لوط ابن أخيه في (سدوم) و(عمورة)، الذين تفشى بينهم داء الشذوذ الجنسي. تقول التوراة:

وظهر له الرب عند بلوطات ممرا، وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر، وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم في باب الخيمة، وسجد إلى الأرض، وقال: ياسيد إن كنت وجدت نعمة في عينيك، فلا تتجاوز عبدك

تكوين ١٨ ـ ١ : ٣ .

والنص واضح تماماً، فالرب هنا يظهر في صورة ثلاثة رجال، استقبلهم إبراهيم، ثم خاطبهم بصيغة المفرد: ياسيد، عينيك، عبدك، ونتابع النص:

> ثم قام الرجال، وتطلعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم، فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله؟ وانصرف الرجال من هناك، وذهبوا، نحو سدوم. وأما إبراهيم فلم يزل قائماً أمام الرب
>
> تكوين ١٨ ـ :١: ٢٢

مرة أخرى، الرب هنا مجموعة رجال في واحد، لكن المربك في هذا النص القول أن هؤلاء الرجال الآلهة ذهبوا نحو سدوم ليدمروها، بينما بقي الرب مع إبراهيم، ولا تفسير لهذا الأمر سوى أن الذي بقي هو كبيرهم الرب الإله، ويؤكد لنا هذا الفهم، أن الذين ذهبوا لتنفيذ المهمة اثنين فقط، فالنص يتابع قائلاً:

> فلما رآهما لوط، قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض، وقال: ياسيدي ميلا إلى بيت عبدكما، واغسلا أرجلكما..
>
> تكوين ١٩ ـ ١ ـ ٢ .

ومع ذلك فإن مزيد من الإمعان في التوراة، يرفع عدد آلهة المجمع حيث نجد عدداً لا بأس به من الآلهة، فهناك: (إل صبأوت) إله الجنود، و(إله عليون) الإله العلي، (وإل شداي) الإله الشديد أو القدير، و(إل شلم) إله السلام، و(إل جبور)، و(إل رحبوت) و(إل يراه) ويمكن لخبرة الباحث في تاريخ الديانات وفي الميثولوجي، أن يشتّمم في هذه الأسماء، أسماء لآلهة مواضع ومناطق وظواهر طبيعية فترجمة (إل صبأوت) يمكن أيضاً أن تكون (إله الظباء) أو الإله الظبي أو التيس، وهو إله معروف في تاريخ الديانات كرمز للخصب، و(إل عليون) يمكن أن يكون إله مكان مرتفع كقمة جبل أو بركان أو ماشابه ذلك و(إل شداي) يمكن أن يترجم إضافة إلى كونه الشديد، إلى إله

الشذى أو الرائحة والريح (الدال تختلط بالذال في الساميات)، و(إل يراه) رمز واضح لإله الماء والري والخصب، وينطق أيضاً (يراخ)، والمصريون يقولون: (المطر يرخ) ويتضح للمدقق في التوراة إن إلى يراه كان إلهاً لبئر أو لعين من الماء فهو يلتقي بهاجر «على عين الماء التي في طريق شور» (تكوين ١٦ ـ ٧) ويأمرها بالرجوع إلى سيدتها» فدعت اسم الرب الذي تكلم معها:

«أنت إيل رئي»، والمعنى أن هاجر تعلم أن هناك أكثر من إله، فميزت الإله الذي قابلته «الذي تكلم معها» وعرفت فيه إله الري، بأنه «أنت إيل رئي»، وقد اكتشفت أنه إله الري بالذات، والسبب «لأنها قالت: أههنا رأيت بعد روية» (تكوين ١٦ ـ ١٣) أي ارتويت بعد عطش كاد يكون موتاً (روية) ثم أنها صادفت ذات الإله بعد ذلك عندما أخذها إبراهيم النبي بأمر زوجته سارة إلى البرية، حيث تركها هناك مع طفلها إسماعيل، حيث تظهر علامات إله الخصب مرة أخرى حين «طرحت الولد تحت إحدى الأشجار» (تكوين ٢١ ـ ١٥)، وأخذت تبحث عن الماء، «وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء» (تكوين ٢١ ـ ١٩)، لذلك «دعت البئر بئر لحي رئي» (تكوين ١٦ ـ ١٣)، ولعل النص في الأصل «دعت البئر بئر لهي رئي» أي إله الري والماء.

ويظهر الإله (لهي رئي) في أكثر من موضع في العهد الإبراهيمي، لكن مع تداخل يهوه، الذي لم يظهر إلا في العهد الموسومي، بيد الكاتب المتأخر الذي خلط بين العهدين، وذلك في قصة تضحية إبراهيم بابنه لربه، وطقس التضحية يرتبط عادة بآلهة الخصب والري، طلباً للغيث والري، كما يرتبط بطقس الجنس الجماعي، والموضع الذي ذهب إبراهيم ليضحي فيه بولده يأتي في النص القائل «فدعا إبراهيم اسم ذلك المكان يهوه يراه ـ تكوين ٢٣ ـ ١٤»، وهنا يرد (يهوه) بمعنى الإله مضافاً إلى (يراه) فهو إله الري، وفي أكثر من موضع نجد إسحق بن إبراهيم يسمي بئر هذه المنطقة «بئر لحي رئي»، أو ما افترضنا «بئر لهي رئي» أي إله الري وليس إله الرؤية بمعنى البصيرة (التكوين ٢٤ ـ ٦٢ ـ ٢٥ ـ ١١).

وهناك أمر يرتبط بهذا الإله هو إشارة المؤرخين العرب والمسلمين إلى هبوط النبي إبراهيم مع سارة وولدها إسماعيل جزيرة العرب، لكن التوراة لم تشر إلى هذا الأمر بوضوح، وإن كنا قد استطعنا أن نعثر على متفرقات بالتوراة، يمكن أن تربط بين إبراهيم وجزيرة العرب، واثبتناه بالأدلة في بحثنا (النبي إبراهيم والتاريخ المجهول ـ سينا للنشر)، ويرتبط أيضاً بهاجر وبالإله الذي التقت به عند البئر (إله رئي)، وبطقس ذبح الابن الذي كاد أن يقوم به النبي إبراهيم، (وهو أحد طقوس عبادة الخصب، حيث كانت التضحية بالابن البكر شرعة واجبة في عبادات الخصب بطول المنطقة وعرضها فكان العباد يذبحون البكر ويحرقونه في حجر الإله).

والتوراة تورد الأمر الإلهي لإبراهيم بقولها: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق، واذهب إلى أرض المريا، واصعده هناك محرقة ـ تكوين ٢٢ ـ ٢» لذلك «دعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يراه، حتى أنه يقال اليوم في جبل الرب يرى تكوين ٢٢ ـ ١٤».

والنص يعني أن الرب أمر إبراهيم بذبح ابنه إسحق، وهو مالا يتفق مع شرعية التضحية بالبكر، والبكر هو إسماعيل، والعرب والمسلمون يؤكدون أن الذبيح كان إسماعيل، وهو ما يتسق مع تلك الشرعة القديمة، وإذا كان إسماعيل في التوراة، وفي كتب التراث الإسلامي هو الجد البعيد لعرب الجزيرة، فإن ذلك كله يذهب بنا إلى جزيرة العرب، في رحلة إبراهيم مع هاجر واسماعيل حيث تركهما هنا، لكن بعد أن كاد يضحي بولده في (أرض المريا) لذلك سمي الموضع (يهوه يراه) وأنه يسمى حتى اليوم، أو بتعبير التوراة: يقال اليوم (جبل الرب يرى). وهو ما تعنيه تماماً اللفظة العربية (المروة)، التي تتركب من ملصقين هما (إل = إله) و(مروة) أو (مروى) وتشير إلى الري والخصب.

ولم تزل (المروة) موضعاً مقدساً في بلاد الحجاز، باعتقاد أن قدسيته

موروثة منذ أيام النبي إبراهيم، وشعيرة الهرولة بين الصفا والمروة أحد شعائر الحج الأساسية، ويتبعه ضمن الطقوس شعيرة الذبح.

وتقول كتب التراث الإسلامي: إن الصفا والمروة كانا مقدسين قبل الإسلام بزمان وظلا مقدسين في العصر الجاهلي، وكان الجاهليون يهرولون بينهما لأنه على الصفا كان الصنم (آساف) أو (آصاف) أي يوسف، وأن على المروة كان الصنم (نائلة)، وإن يوسف في الأسطورة قد جامع نائلة داخل الكعبة، لذا نشأ طقس الهرولة بينهما في الجاهلية، مداً وإيصالاً لحبل الوصال بينهما، وهذا الجماع كان بدوره أحد طقوس عبادة الخصب في الديانات القديمة. (ولنلاحظ أن نائلة في العامية نايلة، وفي العربية يعبرون عن وصال المرأة بكلمة نالها، وفي العامية المصرية: نَيَلُّها).

وتأسيساً على كل هذه المعاني سنقوم بالربط بين (إيل يراه) أو (إل يرخ) وبين القمر، باعتبار القمر كان يرتبط دوماً بالعبادة الخصبية التي كانت تقوم في البوادي، والإسم (يرخ) كان أحد أسماء القمر في العبادات السامية وله أسماء عدة مشتقة من (يراه)، فهو أيضاً (رخ)، (يرخ)، و(الورخ) و(يرح)، وكان أشهر مقار عبادته فيما يفيدنا به أنيس فريحة، المدينة التي حملت اسم (أريحا)(٢١) في فلسطين.

وإننا إذ نربط بين القمر وبين عبادة الخصب، فإننا نقيم ذلك على عدة شواهد، أهمها الاعتقاد القديم أن القمر متولد أصلاً من الهواء، والهواء هو الذي يسبب الريح (يريح)، كما أنه في هيئة الهلال كان في شكل قرنين، والقرنين لوازم الحيوانات التي قدست باعتبارها رموز آلهة الخصب وهي الشياة عموماً، (الثور، التيس، الخروف)، لذلك أطلق على القمر لدى الشعوب السامية إسم آخر هو (سين) اشتقاقاً من أسماء الشياة، وأسماء الشياة. فيما يفيدنا به (موسكاتي) كانت تنطق (سي) بإمالة السين إمالة طويلة، وهي التي تطورت بعد ذلك من (سي) إلى (شي) إلى (شاء) إلى (شاة)(٢٢).

إذن (إل يرى) هو إله الخصب إله القمر، وتأسيساً على فرضنا هذا وقياساً على ثواليت العبادات الخصبية في المنطقة، يمكنا افتراض أنه كان في الثالوث الإيلي، ابن (إل شداي) وشداي منها الشذى، أى الرائحة والريح والهواء، والقمر متولد عن الهواء في اعتقادات القدماء كما أسلفنا فيكون (إل شداى) هو إله الهواء أبو إله الخصب القمري (إل يرى).

وهكذا لا يكون اليهود قد خرجوا في عهدهم الأول عن النمط السائد في العبادات الطبيعية القديمة، المرتبطة بمواطن الزرع، وبظواهر الطبيعة الكبرى، والذين عبدوا الآلهة نفسها بالمواصفات والوظائف نفسها تقريباً، بينما ظل (إل) كعلم مستقل ومجرد عند الجميع، دلالة جلالية تعود أصلاً إلى السماء كجليل حمل لدى السومرين الإسم (آن) مجرداً، ولدى الساميين الإسم (إل) مجرداً، ليظل دائماً فوق جميع الآلهة، وأبوها جميعاً.

هذا عن (إلوهيم) أو مجموعة الآلهة الإيلية في العهد الإبراهيمي وما قبله، فماذا عن (يهوه) المنسوب في التوراة إلى النبي (موسى)؟

واضح أن إله السماء توارى بمرور الزمان وأصبح رمزاً غير واضح، بينما قفز الإله الابن ليحتل مكان الصدارة، في ديانات المنطقة فأدونيس الفينيقي يبرز ويصبح فوق جميع الآلهة، وبعل الكنعاني يزيد الأب إيل تماماً ويصبح هو محور العبادات، ومن قبل تقدم إنليل السومري على أبيه آن، بل وظهر المسيح الأبن في الديانة المسيحية بنص الأناجيل (كما الوحيد من الآب) ليصبح هو المعبود الرئيسي الأول، بينما توارى الأب تماماً، ثم في المذاهب الشيعية في الإسلام، المنعوتة بالمتطرفة، تم إحلال الحسين في المقام الأول بعد أن أزاح من الوجدان أبيه (علي) أو الإله العلي، وبنفس الطريقة أزاح الإله الابن (يراه) الأب وحل محله ليصبح هو إله الهواء وإله الري وإله القمر والإله الثور معاً، ولكن باسم (يهوه).

وإن استيلاء الابن على سلطات أبيه في المجامع الإلهية، هو بالاستفادة

من النظرية الفرويدية، ترديد لما حدث في المجتمع الإنساني على الأرض، حيث كان يحل الابن القوي دائماً محل ابيه الذي ظل مطلق السلطات طوال فترة تمتعه بالقوة الجسدية، حتى إذا ما كهل وظهر عليه بوادر الضعف، قفز أقوى الأبناء إلى المقدمة واستولى على القيادة.

وقد جاءنا من نصوص آثاريات (أوغاريت) الكنعانية الفينيقية نصوص تشير إلى أن الإله (إيل) أب طاعن في السن عاجز عن إدارة شؤون مملكته، تواق إلى أن يحمل ابنه أعباء وظيفته الإلهية عنه، وأعلن في عدة نصوص تعيين ابنه خليفة له[٢٣]؟

ولما كنا برأينا متفردين في القول بتفوق (إل يراه) بالتحديد، وإنه هو الذي أصبح يحمل اسم (يهوه) بعد مجموعة الآلهة الإيلية (إلّوهيم)، فنحن نحتاج مزيداً من الأدلة حتى يتسم رأينا بالوجاهة المطلوبة.

لقد عرضنا فرضنا: أن (إل يراه) هو إله القمر المتولد عن (إله الشذى) أو الهواء أو الريح (إل شداي)، وأنه مرتبط بالري والخصب، وإن أهم رموزه هي ذات رموز آلهة الري في مختلف العبادات الخصبية، وهي الشياة (الثور، التيس، الخروف)، وأنه ربما صاحبته طقوس الخصب المعروفة في عبادات الخصب كالتضحية بالأطفال على مذبحة، وممارسة نوعاً من طقوس الجنس لحض الطبيعة على الإخصاب والعطاء نباتاً وحيواناً.

وبالبحث عن دعم، نجد التوراة تحكي لنا: أنه من بين أسباط يعقوب (إسرائيل) من دخل مصر مع يوسف، حين كان مُوَزرا على خزانة مصر، وهناك تكاثروا وتناسلوا، ومن سبط ليفي أو لاوي كان النبي موسى، وإن موسى هرب من مصر إثر جريمة قتل فيها مصرياً، انتصاراً ليهودي من بني جلدته، بعد أن تحولوا من سادة إلى عبيد، وأن هروبه كان إلى قبائل (مديان)، وهناك تعرف إلى كاهن مدين المدعو (يثران) وتزوج ابنته، وعاش معه زماناً يرعى الغنم في تلك البوادي، وهناك:

> جاء إلى جبل اللّه حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب من وسط عليقة، فنظر، وإذا العليقة لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه من وسط العليقة، وقال: موسى، موسى، فقال: ها أنذا، فقال: لا تقترب هنا، اخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة.. هكذا تقول لبني إسرائيل: إهيه أرسلني إليك، وقال اللّه ايضاً لموسى: هكذا تقول لبني إسرائيل: يهوه أرسلني إليكم، هذا اسمي إلى الأبد
>
> (خروج ٣ ـ ١ : ١٥)

إذن، ميلاد (يهوه) في أفق الديانة اليهودية، بدأ من تمثله في نار تلتهب في عليقة، حيث التقى بموسى وأعلنه بقرار ربوبيته لليهود، ودعماً لفرضنا المطروح، ما نجده عند الآثاري (ديتلف نيلسن)، الذي قطع بأن (يهوه) كان إلهاً للقمر، تأسيساً على مالاحظه من شواهد أهمها:

● إن التوراة عندما كانت تتحدث عن تجليات يهوه تفهمنا باستمرار أن هذا التجلي لم يكن يحدث إلا ليلاً.

● إن يوم السبت المقدس، والأعياد الأسبوعية الأخرى في الطقوس اليهودية ترتبط بأيام المحاق الثلاثة، وترتبط كل شهرين بمواقع القمر.

● إن تعبيرات التوراة عن ظهور الإله (يهوه) هي اصطلاحات فلكية قمرية قديمة معروفة.

● إن ظهور (يهوه) في سينا لليهود، ارتبط بوقت ظهور القمر في اليوم

الثالث من الشهر القمري.

● إن أهم مواقيت تقديس (يهوه)، تكون في اليوم الأول من الشهر القمري ومنتصف الشهر عندما يكون القمر بدراً.

● إن مواعيد الأضاحي المقربة إلى (يهوه) حسب الأوامر المدونة بالتوراة كانت ترتبط بمواطن القمر، ويتزايد عددها مع نضوج القمر، حتى استوائه بدراً في الرابع عشر من الشهر، فيذبحون أربعة عشر أضحية[٢٤].

ونضيف إلى نلسن ملاحظاتنا: إنه

وإذا كانت ديانات الخصب قد اعتبرت الشياة وعلى رأسها الثور، رمزاً لإله القمر، للتشابه بين الهلال والقرنين، فهو مالم تخرج عنه التوراة، ومن أمثلة ذلك:

● إن أتباع موسى إبان رحلة الخروج، انتهزوا فرصة غيابه فوق الجبل لكي يحضر ألواح الشريعة، فصنعوا ثوراً من ذهب، ووقفوا يرقصون حوله عراة، وهو ذات الطقس التعبدي في مختلف ديانات الخصب (خروج ٣٥).

● تزعم التوراة أن موسى أمر بصنع تابوت بمواصفات محددة، ليتخذه (يهوه) مرقداً له، وإن هذا التابوت هو الذي وضعه الملك (سليمان) بعد ذلك في هيكل عظيم، صنع للتابوت خصيصاً في أورشليم، وأنه كان لهذا الهيكل مذبحاً، وعلى المذبح تمثال لرأس ثور كبير، له قرنين عظيمين[٢٥].

ويذكر سفر الملوك الأول: إن الملك سليمان قتل أخاه أدونيا، وذبح قائد جيشه يوآب، وهو ممسك بقرون المذبح يستجير بيهوه[٢٦] أما جميع زخارف المعبد فكانت ثيراناً مقدسة[٢٧]، ويؤكد (ديورانت): «أن بني إسرائيل لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والتيس»[٢٨].

● إن الملك اليهودي «يربعام» بنص التوراة «عمل عجلي الذهب وقال لهم: عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هو ذاك آلهتك يا إسرائيل الذين

اصعدوك من أرض مصر، ووضع واحد في بيت آيل، وجعل الآخر في دان ـ (ملوك أول ـ ١٢ ـ ٢٨ ـ ٢٩).

● أو ما جاء في النص التوراتي عن هارون أخي موسى «فأخذ ذلك (الذهب) من أيديهم، وصوره بالأزميل عجلاً مسبوكاً، فقالوا هذه آلهتك ياإسرائيل ـ خروج ٣٢ ـ ٤».

● ولنذكر قارئنا بأمور عدة لم يقف عندها الباحثون، وأهمها هو: لماذا تحول الجبل المقدس، الذي التقى فيه موسى بربب لهيب العليقة، من جبل (حوريب) إلى جبل (الطور)؟ ولماذا كان اسم كاهن بلاد مديان حيث التقى موسى بربه، وحيث تزوج بنت هذا الكاهن، لماذا كان يحمل اسم (يثران)؟ ويثران مع ظاهرة القلب في الساميات تصبح (ثيران)!!

ونحن نعلم أن كهنة الآلهة، كانوا يتزيون عادة بزي الإله، وأكدت ذلك نقوش آلهة الخصب وكهنتها بطول المنطقة وعرضها، وصورت كهنة الثور يبلسون تاجاً ذا قرنين.

ومما يدعم وجهة نظرنا في أن اللفظة (ثيران) أو كما وردت مقلوبة ـ بالميتاتيز ـ (يثران) هي لقب كهنوتي لكبير كهنة الإله الثور، هو أن أول ذكر لهذا الكاهن في قصة لقاء بناته بالنبي موسى، عندما كان موسى هارباً من مصر إلى مديان، تقول: «وكان لكاهن مديان سبع بنات، فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن، فأتى الرعاة وطردوهن، فنهض موسى وأنجدهن، وسقى غنمهم، فلما أتين إلى رعوئيل آبيهن. . قلن رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة ـ خروج ٢ ـ ١٦ : ١٩»:

وقد تكرر ذكر هذا الكاهن بالإسم (رعوئيل) عدة مرات كما في النص «وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المدياني حمو موسى: أننا راحلون إلى المكان الذي قال الرب أعطيكم إياه ـ عدد ـ ١٠ . ٢٩»، مما يفيد أن هذا المكان كان يحمل اسم رعوائيل ويقلب لقباً وظيفياً (الثور).

● وأنه ما علينا إلا أن ننطق اسم (يهوه) نطقاً دقيقاً (جاهوفاه) JAHUVAH حتى نجدنا نقلد خوار الثور بكل دقة؟! خاصة مع تدقيق (لودز LODS) في النطق الصحيح لاسم هذا الإله، ووجوب نطقه بفتح ثم ضم فسجول طويلة[٢٩] (والغريب مع ذلك، أن لودز لم يلحظ العلاقة بين النطق بهذا الشكل وبين خوار الثور).

ثم، وحتى ندعم فرضنا أكثر، سنضطر إلى تسجيل أمر هام لاحظناه، وهو التلبس الواضح للإله (يهوه) بالإله الكنعاني (بعل مولوخ) منذ مراحله المبكرة (والبعل مولوخ) ينطق أيضاً ويكتب (بعل مولوك والبعل الملك).

ويعني السيد الملك، أو الرب الملك، وكان ذا غرام خاص بدماء الصغار وكان له احتفالات يأخذ الناس زينتهم فيها، كأنهم في يوم عيد، وكانت دقات الطبول وأصوات المزامير تطغى على صراخ أطفالهم، وهم يحترقون في حجر الإله، وقد حدث في قرطاجنة أثناء حصارها سنة ٣٠٧ ق.م، أن أحرق على مذبح هذا الإله الدموي مائتي غلام من أرقى أسرها، كما كشفت حفائر (كفر الجرة) عن صندوق يضم عظام أطفال، تحت أساس عمود كضحية تأسيس، لبعل مولك، أو الملك.

ومن القصص المشهورة قصة (ميشا) ملك (موآب) الذي ضحى بابنه البكر ليفك الحصار عن مدينته، ولما أجابه البعل، ذبح سبعة آلاف يهودي شكراً وعرفاناً.

وملاحظتنا عن تلبس (يهوه) بالإله (بعل مولك)، تبدأ من شغف (يهوه) بدوره بدماء البشر، فهذا الملك (يفتاح) ينذر للرب نذراً قائلاً: «إن دفعت بني عمون إلى يدي، فالخارج الذي يخرج للقائي عند رجوعي بالسلامة من عند عمون، يكون للرب، وأصعده محرقة.. ثم أتى يفتاح إلى المصفاة، إلى بيته وإذا بابنته خارجة للقائه، وهي وحيدة ولم يكنْ له ابن ولا ابنة غيرها، ففعل بها نذره الذي نره» (قضا ٥ ـ ١١ ـ ٣٠ : ٣٩). ثم انظر مثلاً آخر:

«وسلمهم إلى يد الجعبونيين، فصلبوهم على الجبل أمام الرب» (صموئيل ٢١ ـ ٩)، أو «فحمى غضب الرب على إسرائيل، وقال لموسى خذ جميع رؤوس الشعب، وعلقهم للرب مقابل الشمس، فيرتد حمو غضب الرب» (عدد ٢٥ ـ ٢ ، ٣)، أما النبي (إرميا) فيعلنها صريحة ويقرر أن اليهود كانوا يقدمون أطفالهم مذبوحين محروقين على مذبح البعل الملك (إرميا ـ ٩)[٣٠] .

ومع مزيد من المطالعة في التوراة يتأكد فرضنا، حتى نكاد نزعم أن (يهوه) لم يكن شيئاً آخر غير (البعل الملك)، ولنعد إلى لقاء موسى بيهوه الناري، والنص يقول: «وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط العليقة» ومع التعبير (ملاك الرب) يستمر النص فيقول: «ناداه الرب من وسط العليقة» «هكذا تقول لبني إسرائيل: يهوه أرسلني إليكم» فما المعنى إذن؟ هل كانت نار العليقة ملاك الرب، أم الرب يهوه ذاته؟ الواضح في النص أنها الرب بذاته، إذن ما هو تفسير (ملاك الرب)؟ لقد حاولت في بحث سابق (القمر الأب أو الضلع الأكبر في الثالوث) تفسير هذا التضارب المتواتر بكثرة في التوراة مابين ملاك الرب، و(الرب)، بأن كاتب هذه الأجزاء من التوراة من الكتاب المتأخرين (حوالي ٤٠٠ ق.م في الأسر البابلي وبعده)، وأن فكرة الأولوهية كانت قد سارت حثيثاً في تطورها نحو التوحيد، مما حدا بالكاتب إلى محاولة تفادي التعدد عند الحديث مثلاً عن الذين دمروا سدوم وعمورة (وهم ثلاثة) فكان يضطر إلى إثبات المعلومة الأصلية المعددة، ثم يتحايل بالقول أنه ملائكة لكني لوجه الحق لم أعد مقتنعاً تماماً بصدق هذا التفسير، لذلك لن أثبته الآن أو أنفيه، إنما أضيف إليه تصوراً جديداً أو فرضاً جديداً أكثر تماسكاً، وقبولاً أبدأه، بافتراض وجود خطأ واضح ربما كان في ترجمة النصوص الأصلية فلا شك أن (ملاك الرب) إنما هي أصلاً (الرب الملك) أو (البعل مولك، مولوخ)، ويدعم ذلك أن تعبير (ملاك الرب) يرد تبادلياً في مواضع كثيرة بالتوراة مع تعبير (الإله أو يهوه)، ومن هنا لاشك يراودنا إذا قلنا أن (يهوه) لم يكن شيئاً آخر غير (البعل مولك) أو (الملك)، منادى بالاسم

اليهودي الجديد (يهوه).

ولنلحظ إلى (شتادة) يرى معنى الاسم (يهوه) هوى بمعنى سقط[٣١] ولنلحظ أن (هوى) في اللغة، تعني سقط وارتفع في آن معاً، فهو الهواء، وهو ماذهب إليه (فلهاوزن) حين اعتبر (يهوه) إله الريح[٣٢]، وقد خرج المرحوم العقاد باعتقاده أن الاسم (يهوه) من مادة الحياة (يحو)[٣٣]، وهو ما يذكرنا بالتعبير التوراتي المتواتر عن (إل رئي) بأنه مرة (يهوه رئي)، ومرة (لحي رئي)، ولنلحظ أن الهواء سبب (الحياة)، والأقدمون اعتبروا (الروح) سر الحياة من (الريح) أو الهواء والنفس، وحملت لنا اللغة اشتقاقاتها من جذر واحد، وعليه فإن فرضنا أن (يهوه) كان إلهاً للهواء والريح مرموزاً له بالشياة، مع استفادتنا بمذهب (ديتلف نيلسن) أنه كان إلهاً للقمر، قد أصبح فرضنا مدعماً بشكل كاف، وقد ألمح الباحثون إلى ارتباط يهوه بالبراكين، وعدوه إلهاً بركانياً ولنا هنا اضافات تثري هذا المعنى فإذا ربطنا بين ظهور القمر بجاذبيته التي تسبب ظاهرة المد، كما تسبب أيضاً فوران البراكين النشطة، فإن ذلك يؤدي إلى ارتباط القمر بالبراكين في أذهان الأقدمين، ولو طبقنا ذلك على يهوه كقمر سنجده مرتبطاً بالبراكين ارتباطاً مثيراً، حيث نجد صفات (يهوه) في التوراة صفات بركانية دون لبس، فهو قد ظهر ـ أولاً لموسى في هيئة نار في عليقة، كما كان يتمثل لموسى وأتباعه إبان رحلة الخروج «نهاراً في عمود سحاب . . وليلاً في عمود نار» (خروج ١٣ ـ ٢٠ ، ٢١)، وهو المشهد الذي تتجلى به البراكين، فهي إبان النهار يطغى ضوء الشمس على إشعاع لهيبها المختفي في الفوهة، فلا يرى منها غير دخانها، أما ليلاً فيتضح مشهد النيران واللهيب.

كما خلعت التوراة على (يهوه) صفات، ليست سوى صفات مسؤول كبير عن البراكين وهولها في تصور العقل القديم فهي تصفه بأنه «إله يسخط كل يوم» (مزامير ٧ ـ ١١)، وأنه «يمطر . . فخاخا ناراً وكبريتاً وريح السموم» (مزامير١٨ ـ ٦ : ٩)، وأنه ينادي عباده آمراً اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعده

مزامير (٢ ـ ١١) وأنه إذا غضب «صعد دخان من أنفه ونار من فمه» (مزامير ٢ ـ ١١)، وأنه إذا تجلى صاحبته «رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل. . وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل جداً» (خروج ١٩ ـ ١٦ ، ١٧)، أما صفته الدائمة المتواترة في نصوص التوراة فهي «الرب إلهك هو نار آكلة» (تثنية ٤ ـ ٢٣ ، ٢٤)، أما أوضح تعبير توراتي عن ارتباط ظهور القمر بجاذبيته، بظهور الإله (يهوه) بثوران البركان، فهو ذلك النص الذي لا يحتاج تعليقاً: «. . جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وعن يمينه نار شريعة لهم» (تثنية ٢٣ ـ ١) مع ملاحظة أن اسم الجبل الذي أشرق منه الإله (يهوه) أو القمر، يحمل اسم (سعير)، والسعير يدل على هوية هذا الجبل المستعر بالنار الذي تلألأ منه الإله وعن يمينه نار.

أما الأكيد فهو أن ابن (إيل) كان (البعل الملك)، وفي النصوص الأوغاريتية الكنعانية يقول الرب (إيل): «اسم ابني ياو»[٣٤]، و(ياو) ليس شيئاً آخر غير (ياهو) أو (إهيه) أو (ياه) أو (يهوه)، أسماء رب اليهود في العهد الموسوي، كما وردت في التوراة!! (ولنلحظ أنه عندما جاء الإسلام أعطى ملاك أو خازن النار في السعير الإسم مالك)؟!

وعليه نقرر أن اليهود عبدوا فعلاً (الملك) باسم (يهوه) في الغالب وعبدوه أحياناً أخرى بالإسم (الملك) صراحة كما رأينا في سفر النبي أرميا. وأنهم تحاشياً لهذه الوصمة الكبرى التي تهدم أعمدة الفكر الديني اليهودي المتسم بالذاتية والاستقلالية والخصوصية التامة، حيث زعموا أن (يهوه) اختارهم من بين العالمين عُباداً له، بينما هو أحد آلهة شعوب المنطقة، وأنه كان معبود اليهود فعلاً وإلا ما حرمته ونهت عنه التشريعات الموسوية، أقول: تحاشياً لذلك استخدم اليهود الاسم (يهوه) بديلاً عن (الملك)، ذلك الاسم الذي حمل من المعاني الكثير أوردناها سلفاً، لكنه حمل أيضاً معنى نداء الغائب في

العبرية تحاشياً لنداء الرب صراحة باسمه (بعل مولوج) أو (الملك)، ولم تكن التسمية (يهوه) كنداء للغائب (هو) كما ذهب الباحثون التوراتيون احتراماً للذات الإلهية (كما في رأي سميث مثلاً)[٣٦]، إنما تغطية لاسم المعبود الأصلي، الذي كثيراً ما ظهر في الترجمات بالاسم (ملاك الرب) بدلاً من الترجمة الحقيقية (الرب الملك) أو (البعل مولوك).

لكن ذلك لا يعني أن اليهود، قد انتقلوا من عبادة مجموعة الآلهة الإيلية (إلّوهم)، إلى عبادة إله واحد باسم (يهوه)، فالأمر لم يكن كذلك، ولم يكن (يهوه) هو إله اليهود الوحيد بعد العهد الموسوي، إنما كان هناك عدداً آخر من العبادات لحق بعبادة يهوه وعدداً من الآلهة عبد في الوقت ذاته إلى جوار (يهوه) حتى في داخل هيكله، وقد سجلت التوراة ذلك دونما حرج، وتواجدت هذه الآلهة طوال العصر الممتد من موسى حتى ظهور الأنبياء الموحدين (أمثال أشعيا ودانيال، وظهروا متأخرين، قبل القرن السابق للميلاد بقليل).

فإلى جوار (البعل الملك) أو (يهوه) عبد اليهود عدداً آخر من البعول مثل (بعل فغور)، الذي ورد في النص التوراتي «وتعلق إسرائيل ببعل فغور، فحمى غضب الرب على إسرائيل» (عدد ٢٥ ـ ١ : ٥) ومثل البعلة، زوجة بعل مولك (البعلة الملكة، أو ملكة السماوات، بعليت مولوخ) المعروفة بالأنثى الإلهية (إناث). إذ قالت التوراة بلسان اليهود «بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا، فنبخر لملكة السماوات، ونسكب لها سكائب، كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا، وفي شوارع أورشليم، فشبعنا خبزاً، وكنا بخير..» (أرميا ٤٤ ـ ١٧).

بل إن بعض كبار ملوكهم مثل سليمان، عبد مثل هذه الآلهة صراحة وهو ما نراه في النص التوراتي «حينئذ بني سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين، على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون» (ملوك

أول ١١ ـ ٧) وبالمناسبة: هل كموش غير جموش أو بالعربية جموس أو جاموس؟ لفتة نشير بها إلى أنه بدوره كان إلهاً للخصب.

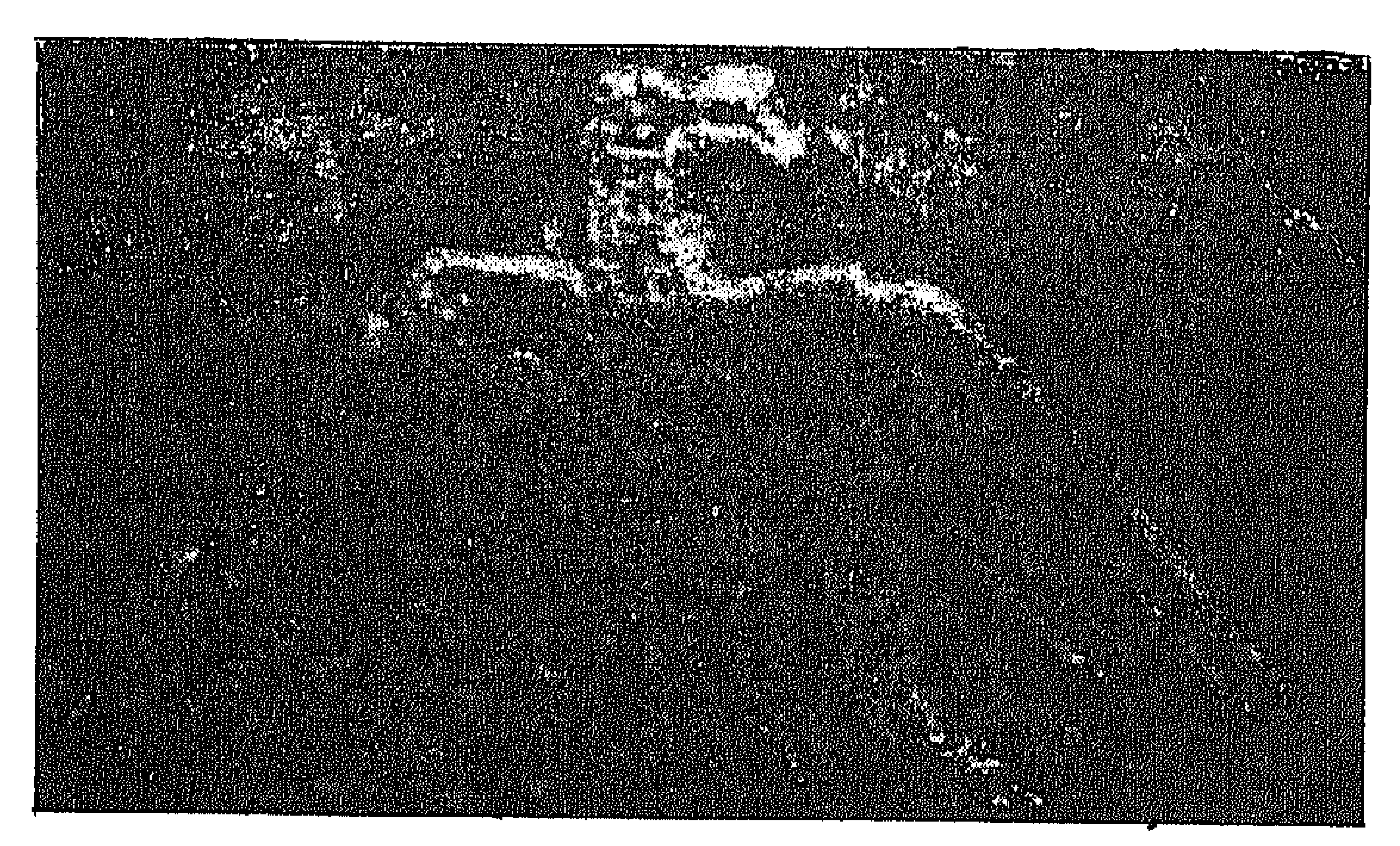
ثم أنهم عبدوا أيضاً (تموز) إله الخصب الرافدي، ومارسوا طقوس الندب والبكاء عليه باعتباره إلهاً شهيداً، كما ظلوا على عبادة الشمس فترة طويلة وهو ما يفهم من رواية النبي حزقيال، عندما ذهب إلى الهيكل «وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز. . وإذا عند باب الهيكل، وبين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلاً، ظهورهم نحو هيكل الرب، ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس» (حزقيال ٨ ـ ١٤ : ١٦).

ولاتني التوراة تؤكد أنهم عبدوا مجموعة البعول والبعلات الملقبات باسم (عشتارت) من عشتروت الرافدية، فتقول: «وعبدوا البعليم (جمع بعل) والعشتارت (جمع عشتار) وآلهة صيدون، وآلهة موآب، وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين» (قضاة ١٠ ـ ٦) أو باختصار، أنهم شاركوا في عبادة كل آلهة المنطقة[٣٧].

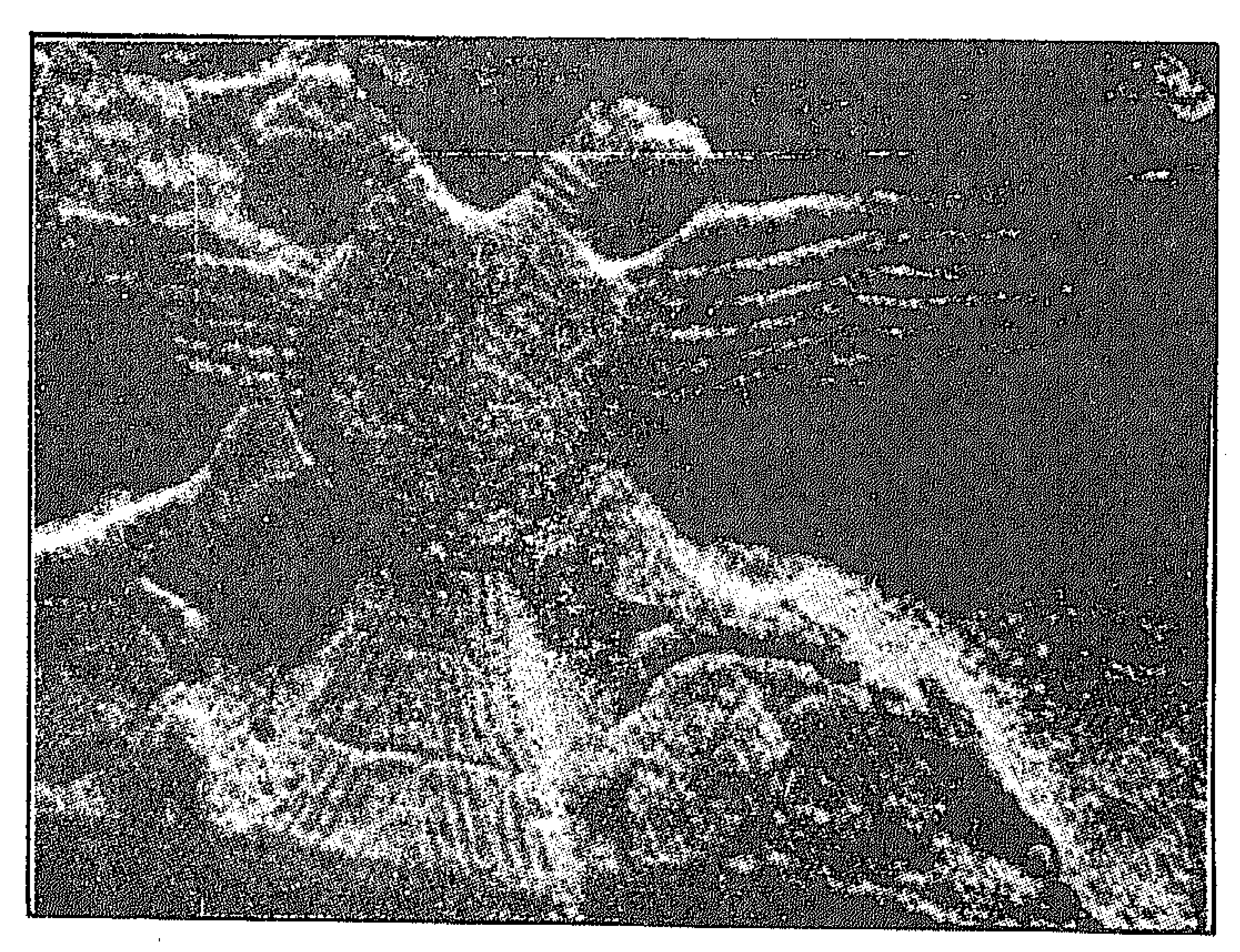
ومن المقدسات الشبيهة بالآلهة عند اليهود، وربما كانت أدنى قليلاً، كائنات أسمتها التوراة (الكروبيم) جمع (كروب)، وكان تصورهم لشكل (الكروب) محيراً، فهو يظهر مرة على أنه طير ربما كان نسراً، لكنه بعد ذلك يأخذ شكل الثور المجنح، بوجه إنسان، فالأسفار القديمة تصوره في هيئة نسر صنع له تمثالين وضع أحدهما على مقدمة تابوت العهد أو الشهادة والآخر في مؤخرته، فالنص يقول: «فلما دخل موسى إلى خيمة الاجتماع، ليتكلم مع الرب، كان يسمع الصوت يكلمه من على الغطاء الذي على تابوت الشهادة، من بين الكروبيين» (عدد ٧ ـ ٨٩). وينسب إلى موسى القول أنه رأى هذا النوع من الطيور قرب عرش الإله[٣٨]، وأنه لما أتم سليمان بناء الهيكل، جمع شيوخ اليهود «وحمل الكهنة تابوت عهد الرب، وأدخلوه إلى مكانه في محراب البيت، في قدس الأقداس، تحت جناحي الكروبيين» (ملوك أول ٨ ـ ١ :

ويبدو لنا أن تقديس النسور في مختلف العبادات القديمة، كان سببه رؤية العقل القديم لمسكن الآلهة في السماء، مع قدرة هذه الطيور رغم ضخامتها على الطيران والصعود في الأعالي، مما جعلها في التصور قريبة من الآلهة، لذلك أعطى العقل القديم كل المقدسات القريبة من الآلهة الأجنحة والقدرة على الطيران حتى تتمكن من الصعود إلى مقر الآلهة أو الهبوط منها، وهو ما نلحظه في صفات الملائكة، وقد قدست معظم الشعوب القديمة النسر وبخاصة العرب الجنوبية وقد أشارالقرآن الكريم إلى عبادة (نسر) ضمن مجموعة آلهة عربية قديمة في قوله: ﴿ولا تذرون وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾ (٢٣ - نوح).

أما الصورة الثانية للكروب، كثور مجنح برأس إنسان، فتأتي في الأسفار المتأخرة، حيث نجد النبي حزقيال يصفه كالآتي: «.. لكل منها أربعة أوجه، وجه إنسان، ووجه أسد، ووجه ثور، ووجه نسر، ولكل منها أربعة أجنحة تحت أيدي إنسان» (حزقيال ١ - ٢٥)، وقد نقشت تماثيل هذه



النسر العربي المقدس شعار سبأ الروحي (نقش يمنى)



النسر الحيثي المقدس (نقش من بوغازكوى)

الكائنات الإلهية على جدران المعبد اليهودي ومع التحول نحو التوحيد (عند أشعيا وأرميا) تحولت الكروبيم إلى الدابة التي يستخدمها الإله في الركوب، فكان لابد لدابته أن تتميز عن حمير وخيول البشر، بما يليق بمكانته، فأضيف إليها وجه الإنسان، والأجنحة (مزمور ١٨ - ١١).

وغني عن الذكر أن مثل هذه الكائنات بقي محفوراً في الديانتين المسيحية والإسلامية، ففي المسيحية تصادفنا (الكروبيم) في حفل أو (بارتي) إلهي تغني قداساً إلهياً (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٤ - ٦ : ١١)، أما في الإسلام فقد جاءتنا الدابة الإلهية (كروب) منطوقة (قروب)، ومع ظاهرة القلب المعروفة في اللغات السامية تحولت (كروب)، أو (كراب) إلى (براك)، أو (براق) وهو دابة سماوية بوجه إنسان وجسم مجنح، حملت النبي محمد ﷺ من مكة إلى القدس في قصة الإسراء المعروفة، كما كان للبراق باسمه العبري (كروب)

شأناً في كتابات التراث الإسلامية، لكن بعد أن تحولت مع التطور إلى أملاك للإله الواحد، فهي ملائكة له، فأصبحوا سادة الملائكة[٣٩] وباعتبارهم دواب ركوب وحمل، فقد جاءوا كحملة للعرش الإلهي في الإسلام[٤٠] كما كانوا مركباً ليهوه وتابوته من قبل، وقد صادق النبي محمد ﷺ على بيت من الشعر الجاهلي لأمية بن عبد الله يصف الكروب يقول فيه:

رجل وثور تحت يمنى رجله والنسر لليسرى وليث ملبد

وجاء تصديق النبي في تعقيبه على هذا البيت بقوله:

صدق أمية في قوله[٤١]!؟

ولعل صورة الكروب تلك لا فرض آخر لظهورها، وتحولها من نسر إلى ثور مجنح، سوى القول أن حزقيال قد تأثر بشدة بالثيران المجنحة المرسومة على جدران بابل، وتماثيلها المتناثرة في أرض بابل، وكانت عند البابليين حيوانات خرافية مهمتها حراسة المواقع الهامة في البلاد، ولاشك أن حزقيال رآها هناك إبان أسر اليهود في بابل.

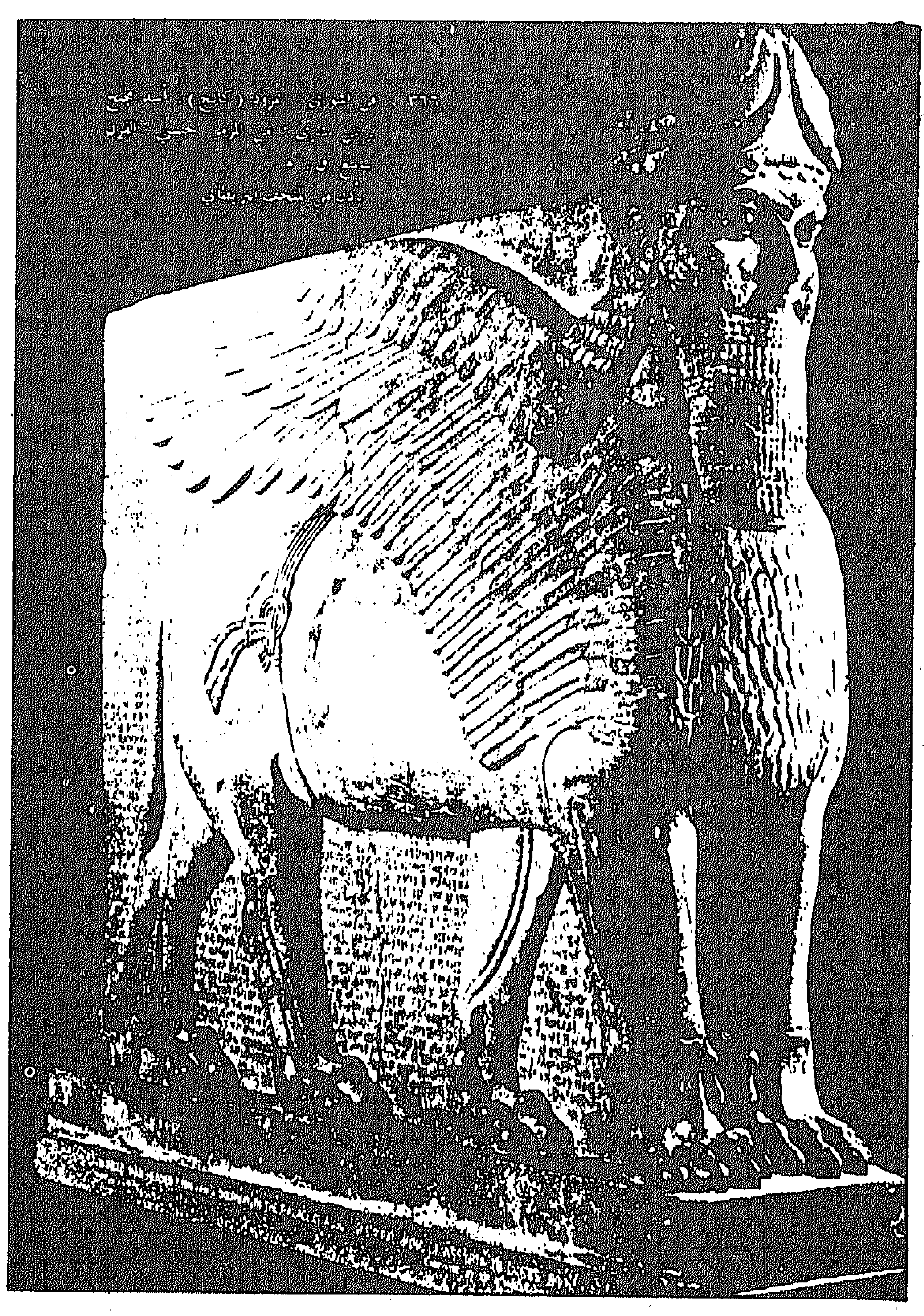
ونظن أن اليهود قد تمثلوا في هذا الكروب البابلي إلههم يهوه في فترة من زمانهم: فالوجه الإنساني الوقور يمثل الجانب البشري فيه، والثور يمثل إل رئي بوصف الثور رمزاً للخصب والري، والأجنحة تمثل إل شداي أو الريح، والقرنين رمزاً للقمر.. الخ.

ثم إضافة للكروبيم كانت هناك كيانات أخرى مقدسة مثل السرافيم جمع ساراف، ويفسر (موسكاتي) ساراف أنها كانت تعني الحية أو الثعبان[٤٢] وقد سبق وأقام لها موسى تماثيل مقدسة على راياته عند خروجه من مصر «فصنع موسى حية نحاس ووضعها على الراية» (عدد ٢١ ـ ٥ : ٩)، ولا ننسى عصى موسى التي كانت تنقلب إلى حية، كما لا ننسى خروج موسى ورجاله من مصر القديمة حيث كانت الحية رمزاً مقدساً يوضع على تيجان

الفراعنة، وأن السرافيم لم تعرف في تاريخ الديانة اليهودية قبل الخروج من مصر، ويبدو أن عبادة الحية وما يلزمه طقسها من ايقاد نار مستمرة أمامها للتبخير وتقديم قرابين البخور، قد استمر قائماً في أفق الديانة اليهودية دون أن يغضب (يهوه) أو ينزعج، وهو ما تؤكده التوراة في قولها: «حية النحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل إلى تلك الأيام كانوا يوقدون لها ـ ملوك ثاني ١٨ ـ ٤)، هذا بينما كان يهوه يتفجر غضباً إذا عبدوا بعلاً آخر لأنها بعول غريبة، مثل بعل بني موآب كموس أو جاموس أما هو فالبعل الوحيد لليهود، لذلك كان يطالبهم بالإخلاص القبلي له دون بقية البعول وفعلاً نظر اليهود إلى بعلهم بحسبانه بعلاً إسرائيلياً فحسب، أحق بعبادة اليهود من البعول الأخرى، ولم ينكروا في الوقت ذاته وجود بعول أخرى، كما لم ينكر (يهوه) ذلك، لكن إنكار الأتقياء منهم كان إنكاراً لسيادة رب غريب عليهم، ومن هنا دانوا ليهوه وحده بالولاء، فالتوراة لا تميز ربها باعتباره رب الجميع الأوحد، إنما رب إلى جوار أرباب الشعوب الأخرى، لكنه الوحيد من بينها الجدير بولاء اليهود، انظر مثلاً

من مثلك في الآلهة يارب؟ (خروج ١٥ ـ ١١)
الآن علمت أن الرب عظيم فوق جميع الآلهة (خروج ١٨ ـ ١٩)
من يشبه الرب بين أبناء الآلهة؟ إله
مهوب جداً في جماعة القديسين، ومخوف
عند الذين حوله، يارب إله الجنود، من
مثلك قوي يارب؟ «مزامير ٨٩ ـ ٦ : ١٢»

لكن التطور التالي الذي لحق بعبادة البعل الملك يهوه، ليتحول به من إله قبلي إلى عالمي، يطلب السيادة على القبائل والشعوب الأخرى فقد جاء مترافقاً مع ظروف عالمية وتغيرات جدت بعد السبي في الرافدين وقام بهذه المهمة بكفاءة عالية عدد من الأنبياء، أشهرهم (دانيال وأشعيا)، اللذين كانا على علاقة سرية وخاصة بالدولة الفارسية الطالعة الطموحة، وبعالها



أحد ثيران بابل المجنحة برأس إنسان وأجنحة نسر وقوائم وجسد ثور مع قرنين حول تاجه، وفي مجمله يوحي بمشهد الأسد أو كما أسماه حزقيال (كروب أو قراب) أو كما أسمته الروايات الإسلامية (براق).

(كورش)، حتى اتهم أشعيا بسبب هذه العلاقة بالجاسوسية لحساب الفرس، رغم وضوح أنه كان يعمل بإخلاص لفك أسر اليهود على يد قورش، ولو مع بعض التنازلات الدينية التي لا بأس بها إزاء الغرض الأكبر، وكانت هذه التنازلات هي سبب هجوم اليهود عليه واتهامه بالعمالة، وقد استطاع أشعيا وصحبه أن يفتحوا أبواب بابل للفرس، وبعد سقوط هذه القوة الكبرى تمكن قورش من الزحف قدماً ليكوّن أكبر امبراطورية ظهرت في الشرق حتى عهده، وباعتبار اليهود قطعة من هذا الملك الواسع، فقد تصرف الأنبياء وفق الوضع الجديد، واستغلوه سياسياً ودينياً بذكاء، فحولوا إلههم المحلي إلى إله عالمي، ولم يترددوا عن التجاسر بالقول إنه هو إله قورش ومن ثم إله الأمبراطورية، بل وسجلوا ذلك في توراتهم، وادعوا إن قورش كان يعمل بنصح (يهوه) وإرشاده حتى بلغ بهم الأمر مبلغاً كبيراً فقالوا إن قورش هو مسيح يهوه المنتظر، ومخلص اليهود الذي طالما ترقبوا ظهوره ليعيدهم إلى أرضهم ليبنوا دولتهم من جديد، هذا رغم أن قورش كان رجلاً مؤمناً بديانته الزرادشتية، مخلصاً لها تماماً، لكنه لم يجد بأساً ولا حرجاً في قليل من المجاملة لجواسيسه الخُلّص فتغاضى عما كان يعلنه اليهود عنه وعن الرب يهوه، ما دام الأمر لم يتجاوز النطاق الديني أو نطاقهم هم الديني بتعبير أدق وزاد قورش في المجاملة فأطلق سراحهم من الأسر، وساعدهم في إقامة هيكلهم مرة أخرى، ثم تزوج واحدة منهم (إستير) وجعلها ملكة على بابل.

وكان لتبادل هذه المجاملات والسماحات بين العاهل الفارسي العظيم وبين اليهود، دوره الفاعل في تحول يهوه من إله قبلي محلي إلى إله عالمي . .

وسبق ذلك عدة محاولات سريعة لتخليص (يهوه) من ارتباطه بمولك الثور ومن السرافيم (الحيات) والكروبيم (الثيران الطائرة)، فقام عدد من الأنبياء بهذه المهمة بجرأة شديدة ليعلنوا كفرهم بالإله الثور، والتنديد به والتطاول عليه، فهذا يجهر قائلاً: زنخ عجلك ياسامرة (هوشع ٨ ـ ٥) وذاك الملك حزقيا بن أحاز يتبع الدعوة الجديدة، فتسجل التوراة عنه، أنه «هو

الذي أزال المرتفعات، وكسر التماثيل، وقطع السواري، وسحق حية النحاس التي عملها موسى، لأن بني اسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها» (ملوك ثاني ١٨ ـ ٤).

ولذلك «أمر حلقيا الكاهن العظيم، وكهنة الفرقة الثانية، وحراس الباب أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل (إقرار واضح بصدق فرضنا)، وللسارية، ولكل أجناد السماء، وأحرقها خارج أورشليم، في حقول قدرون، وحمل رمادها إلى بيت إيل.. وذبح جميع كهنة المرتفعات.. وكذلك السحرة والعرافين والترافيم والأصنام، وجميع الرجاسات» (ملوك ثاني ٢٣ ـ ٤ : ٢٤).

ومن ثم جاز ليهوه بعد ذلك أن يزهو بذاته الوحيدة، فيقول على لسان أشعيا:

أنا الرب وليس آخر، لا إله سواي
أنا الرب وليس آخر، مصدر النور وخالق
الظلمة، صانع السلام (أشعيا ٤٥).
أنا الأول وأنا الآخر، ولا إله غيري
وكل شيء أنا أعلم به.. أنا الرب صانع
كل شيء، ناشر السماء وحدي، باسط
الأرض، من معي؟ (اشعيا ٤٤)
هو الله الجالس على كرة الأرض، الذي
ينشر السماوات كسرادق، ويبسطها كخيمة
للسكن، الذي يجعل العظماء لا شيئاً (اهل
بابل)، ويصير قضاة الأرض كالباطل،
فبمن تشبهون الله فيساويه؟
(أشعيا ٤٠ ـ ٢٢ : ٢٥).

وهكذا تكفل أشعيا بإشاعة أن يهوه هو إله قورش وناصره، ومن ثم هو

إله الأمبراطورية والعالم، ولم يعترض قورش المجامل على جواسيسه الذين كانوا ينقلون له أخبار بابل ومختلف الشعوب أولاً بأول بوفاء جلي.

أما دانيال النبي فقد تكفل بمهمة أخرى فقام يرد تحية قورش بأحسن منها، فأدخل إلى اليهودية عقيدة جديدة لم تكن فيها أبداً من قبل، أخذها عن ديانة كورش (الزرادشتيه) ليكون هذا المزج الديني كفيلاً بتحقيق الأهداف المرجوة فقد ظل اليهود طوال عهودهم يعتقدون أن الموتى جميعاً يرحلون إلى العالم التحت أرضي، صالحهم وطالحهم، ذلك العالم الذي أسمته التوراة (الهاوية) و(شيول) وأكدت التوراة هذا المعنى، فهي تقول: «ومن جهة أمور البشر، إن الله يمتحنهم ليريهم أنه كما البهيمة هم، موت هذا كموت ذاك، وقسمة واحدة للكل» (ص٣ ـ ١٦ : ٢٢).

وكان أعظم عقاب رباني يلحق بإنسان، هو أن يموت، حتى أن الله ذاته كثيراً ما كان يلجأ إلى هذا السلاح السريع المفعول لإنزال عقابه على العصاة، فيميتهم ليذهبوا إلى عالم تحت الأرض (الهاوية، أما الإنسان المخلص ليهوه، فكان يهوه يزيد في سني عمره وفي حياته الدنيوية الأرضية).

فالتوراة تحكي: «وكان عير بكر يهوذا شريراً في عيني الرب، فأماته الرب ـ تكوين ٣٨ ـ ٦ ، ٧ «وهذا» أوتان.. أفسد في الأرض.. فقبح في عيني الرب ما فعله، فأماته أيضاً ـ تكوين ٣٨ ـ ٩ ـ١٠ ـ «وذاك الملك التقى الورع (حزقيا) يخبر النبي أشعيا بقرب موعد موته، ويرجوه أن يتوسط له لدى الرب يهوه، وأن يذكر يهوه بأفضاله عليه، فينقل أشعيا الرسالة ليهوه، ويتلقى الرد» اذهب وقل لحزقيا: هكذا قال الرب إله داود أبيك.. إني قد سمعت صلاتك، ورأيت دموعك وها أنا أزيد على أيامك خمس عشرة سنة (أشعيا ٣٨ ـ ١).

لذلك فإن «مخافة الرب تزيد الأيام، وسنو المنافقين تقصر» (أمثال ١٠ ـ ٢٧)، لأن شيول تساوي بين الجميع، «هذا يموت في معظم وفرة وقد عمته

الدعة والطمأنينة وذاك يموت في مرارة ونفسه لم تذق طيباً، وكلاهما يضطجعان في التراب، فيكسرهما الدود، فمن الذي يبين طريقه، ومن يكافئه على ما صنع؟» (ايوب ٢١ ـ ٣١).

لذلك كانت التوراة تؤكد أن الموتى «يضطجعون معاً لا يقومون، قد خمدوا كفتيلة انطفأت» (أشعيا ٤٣ ـ ١٧) «ينامون نوماً أبدياً ولا يستيقظون» (أرميا ٥١ ـ ٣٩)، بل يبدو لنا في التوراة أن العالم التحت أرضي خارج عن سلطان يهوه وسيطرته، فهذا يرجو ربه إلا يميته قائلاً: «عد يارب، نج نفسي، خلصني من أجل رحمتك، لأنه ليس في الموت ذكرك، في الهاوية من يحمدك؟ . . . هل يحدث في القبر برحمتك؟ أو بحقك في الهلاك؟ هل تعرف في الظلمة عجائبك؟ وبرُّك في أرض النسيان؟» (مزامير ٦).

حتى الأنبياء ذاتهم، عندما كانوا يتسببون في إشعال غضب (يهوه) لا يجد لهم دواء سوى القتل، وهو ما نراه في موت النبي موسى وأخيه هارون «وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلاً: اصعد إلى جبل عباريم، هذا ومت في الجبل الذي تصعد إليه، كما مات هارون أخوك. . لأنكما خنتماني» (تثنية ٣٢ ـ ٤٨ : ٥١).

بل أن كبار الأنبياء كانوا يعلمون مصيرهم بعد الموت، وأنه إلى هاوية تحت الأرض، فها هو يعقوب ينوح حزيناً على موت ولده يوسف، بعد أن خدعه أبناؤه وقالوا له: لقد أكله الذئب، فيقول: «إني أنزل إلى إبني نائحاً في الهاوية» (تكوين ٣٧ ـ ٣٥).

ولكن هل كان دانيال يعرف أن (كورش) سيرضى بهذا المصير ولديه في الديانة الزرادشتية نعيماً مقيماً بعد الموت في مكان سماوي يدعى (باراديس) أو (الفردوس)؟ هنا كانت مهمة دانيال الذكي، فقام يحول شيول إلى عالم خالد، من أجل عيون قورش، ذلك الذي أصبح مسيحاً للرب ويستحق مصيراً أفضل، وبالطبع قبل قورش الهدية ممتناً شاكراً، فظهر في التوراة،

سيراً على منطق الديانة الزرادشتية ولأول مرة، حديث حول قيامة الأموات:

وكثير من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون
هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى
العار، إلى الإزدراء الأبدي
استيقظوا وترنموا ياسكان التراب
هلم ياشعبي ادخل مخادعك

(أشعيا ٢٦ ـ ١٩).

واضع روحي فيكم فتحيون، وأضعكم في
أرضكم فتعلمون انني أنا الرب، تكلمت
وفعلت

(حزقيال: ٣٧ ـ ١ : ٤).

ومع ذلك، فقد كان عامة الشعب يعلمون أن ذلك ليس في أصل دينهم وأن المسألة لعبة سياسية، فعاملوا هذه الأفكار الجديدة بحسبانها غشاً وتدليساً ودساً على يهوه، لذلك ظلت مثل هذه الأفكار موضع تحفظ من غالبية اليهود، وكانت محل رفض واستنكار من المتزمتين التقليديين، حتى مجيء المسيح، الذي كان تأكيده على فكرة البعث والحساب، من أهم حيثيات الحكم عليه بالكفران بدين يهوه، ومن ثم استحقاقه حكم الإعدام صلباً.

سـفر التكوين التوراتي:

لنتذكر الآن أن المدارس البحثية في التوراة تكاد تجمع على أن سفر التكوين أول أسفار الكتاب المقدس، يُعـد مـن بين أحـدث الأسفار وليس أقدمها، وأنه دون حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، أو قبله بقليل، أي بعد العودة من الأسر في بلاد الرافدين).

وأول ما تطالعنا به التوراة، في أول أسفارها (التكوين)، وفي أول صفحات هذا السفر وفي الاصحاحات الثلاث الأولى، تطلع بقولها:

● في البدء خلق اللّه السماوات والأرض.

● وكانت الأرض خربة وخالية.

● وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح اللّه يرف على وجه المياه.

● وقال اللّه: ليكن نور، فكان نور، ورأى اللّه النور أنه حسن، وفصل اللّه بين النور والظلمة، ودعا اللّه النور نهاراً، والظلمة دعاها ليلاً، وكان مساء، وكان صباح، يوماً واحداً.

● وقال اللّه: ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل اللّه الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد، والمياه التي فوق الجلد، وكان مساء، وكان صباح، يوماً ثانياً.

● وقال اللّه: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة، ودعا اللّه اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعا بحراً، ورأى اللّه ذلك أنه حســن.

● وقال اللّه: لتنبت الأرض عشباً وبقلاً، يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر، يعمل كجنسه يبزره على الأرض، وكان كذلك، فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً، يبزر بزراً كجنسه، وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه.

ورأى اللّه ذلك أنه حسن، وكان مساء، وكان صباحاً يوماً ثالثاً.

● وقال اللّه: لتكن أنوار في جلد السماء، لتفصل بين النهار والليل، وتكون الآيات وأوقات وأيام وسنين، وتكون أنوار في جلد السماء، لتنير الأرض، وكان كذلك فعمل اللّه النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم، وجعلها اللّه في جلد السماء، لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى اللّه ذلك أنه حسن، وكان مساء، وكان صباح، يوماً رابعاً.

● وقال اللّه: لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطير طير فوق الأرض، على وجه جلد السماء، فخلق الله التنانين العظام، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة، التي فاضت بها المياه كأجناسها، وكل طائر ذي جناح كجنسه ورأى اللّه ذلك أنه حسن، وباركها اللّه قائلاً: اثمري

واكثري واملأي المياه والبحار، وليكثر الطير على الأرض، وكان مساء، وكان صباح يوماً خامساً.

● وقال اللّه: لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها، فعمل اللّه وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها، ورأى اللّه ذلك أنه حسن، وقال اللّه: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم.

وعلى الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض، فخلق اللّه الإنسان، على صورة اللّه خلقه ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم اللّه، وقال لهم: اثمروا واكثروا واملأوا الارض... (بينما بداية الإصحاح الخامس تقول: يوم خلق اللّه الإنسان، على شبه اللّه عمله، ذكراً وأنثى خلقه، ودعا اسمه آدم يوم خلقه) ورأى اللّه كل ما عمله فإذا هو حسن جداً، وكان مساء، وكان صباح، يوماً سادساً.

● فأكملت السماوات والأرض كل جندها، وفرغ اللّه في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك اللّه اليوم السابع وقدسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل اللّه خالقاً.

● هذه مبادىء السماوات والأرض حين خلقت، يوم عمل الرب الإله الأرض والسماوات، وكل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لأن الرب الإله.

لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليعمل في الأرض، ثم كان ضباباً يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض، وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة، فصار آدم نفساً حية.

● وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذي جبله، وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر، وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر.

● وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس، اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة، حيث الذهب وذهب تلك والأرض جيد هناك المقل، وحجر الجذع، واسم النهر الثاني جيحون، وهو المحيط بجميع أرض (كوش)، واسم النهر الثالث حداقل وهو الجاري شرقي آشور، والنهر الرابع الفرات.

● وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن، ليعملها ويحفظها، وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنها يوم تأكل منها موتاً تموت، وقال الرب الإله: ليس جيداً أن يكون آدم وحده فاصنع له معيناً نظيره، وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها[٤٤] فدعى آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء، وجميع حيوانات البرية، وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره.

● فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي هذه تدعى امرأة لأنها من امرىء أخذت، لذلك يترك الرجل. أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً، وكان كلاهما عريانين، آدم وامرأته وهما لا يخجلان.

● وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية، التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر الجنة نأكل، وأما ثمرة الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه، لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله، عالم أنه يوم تأكلا منه، تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانين، فخاطا أوراق تين، وصنعا لأنفسهما مآزر.

● وسمعها صوت الرب الإله ماشياً في الجنة، عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب، في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان، فأختبأت فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت؟ فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت، فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه، وقال للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك، وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب وإلى التراب تعود

● ودعا آدم اسم إمرأته حواء، لأنها أم كل حي، وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسها.

● وقال الرب الإله، هو ذا الإنسان، قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد، فطرد الإنسان، وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم، ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة.

من البّين في هذه القصة التوراتية بشأن التكوين، أن هناك روايتين أصليتين تم دمجهما في قصة واحدة، وتشير إلى ذلك دلائل شاهدة:

مرة يقوم بفعل من أفعال الخلق من سمي (الله)، وهو في الأصل العبري (يهوه) كما في النص (في البدء خلق الله) و(قال الله) ومرة يقوم بأفعال أخرى

للخلق زعيم المجمع الإلهي (إلّوهيم)، الذي ميزنا باسم (الرب الإله)، وصيغة حديث الرب الإله تشير بوضوح سافر إلى تشاوره المستمر مع أعضاء هذا المجمع (إلّوهيم)، كاستشارته لأعضائه (نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا)، أو كما في إعلامه المجموعة الإلهية بالخبر المفزع الذي أثار القلق الشديد لدى الرب الإله (هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر) وإن هذا الكائن الجديد ربما تطاول وأخذ من شجرة الحياة الخالدة، فيصبح خالداً مثلهم.

في موضوع يقوم الإله الخالق بصنع السماء والأرض دفعة واحدة (في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية)، بينما في موضع آخر تكون السماء والأرض موجودتان أصلاً كيمّ ماء أزلي، يفتقه الله عن بعضه إلى سماء وأرض.

في مشهد يقوم من لُقب بـ (الله) أو يهوه بإنبات النبات في الأرض، ويضع فيها حيوانها ودباباتها، بينما في مشهد آخر نجد برية بلا عشب يقوم الرب الإله فيها بخلق آدم، ثم فجأة يضعه في مكان أرضي يسمي الجنة ليزرعها ويفلحها ويعملها ويحفظها، وفيه نباتات مختلفة، أهمها شجرتين: شجرة المعرفة وشجرة الحياة، وواضح أن هذا المكان كان موطناً تعيش فيه مجموعة الآلهة (إلوهيم) مع كبيرها (الرب الإله) فقط، بدليل خشية الرب الإله أن يتجرأ مخلوقه (آدم) ويأكل من شجرة الخلد الخاصة بالآلهة الخالدة وحدها، خاصة بعدما تجرأ على الأكل من شجرة المعرفة، مما جعله يصبح كالآلهة يميز بين الخير والشر .

هذا مع تناقض واضح يشير إلى هذا الانفصال الأكيد لروايتين مختلفتين من الأصل، تم مزجهما معاً، فنفهم في أحد مواضع قصة التكوين أن آدم عندما وضع في مقر إلهه الخالد، لم يكن محرماً عليه أكل ثمرة الخلد أساساً، بينما نفهم من موضع آخر أنه كان مخلوقاً للفناء (حتى تعود إلى الأرض، التي

أخذت منها، لأنك تراب، وإلى تراب تعود).

ثم تضارب آخر، فلدينا رواية تؤكد أن عملية الخلق بدأت بخلق السماوات والأرض دفعة واحدة، فتقول الرواية: (إن الله قال: ليكن نور فخلق النهار والليل)، بينما الرواية التي تتحدث عن السماء والأرض كموجود واحد أصلي في هيئة غمر أزلي مظلم، ترجىء إيصال الإنارة إلى مابعد فتق هذا المحيط إلى سماء وأرض.

ثم يظهر تضارب آخر بين القصتين، في كنه عملية الخلق ذاتها فالله يتخذ كل مرة قراراً للخلق بالكلمة فقط، لكنه في كل مرة كان يتبع كلمته الخالقة بعمل يدوي من صنع يديه لإيجاد الشيء المراد خلقه: (وقال الله ليكن جلد.. فعمل الله الجلد، وقال الله لتكن أنوار.. فعمل الله النورين العظيميين... الخ).

أما أبرز الشواهد على مزج روايتين مختلفتين في التكوين التوراتي فهو الكيفية التي تم بها خلق الإنسان الأول، ففي مواضع من القصة نجد الخالق يخلق الإنسان دفعة واحدة، ككائن واحد، يجمع في ذاته الواحدة الذكورة مع الأنوثة (وذكر وأنثى خلقه وباركه، ودعا اسمه آدم) ثم يفصل عنه العنصر الأنثوي من خلال المرأة الضلع أو الضلع المرأة، بينما نجد في موضع آخر إشارة مختلفة تماماً، تقول (على صورة الله خلق الزوجين ذكر وأنثى خلقهم)، فهنا شخصين منفصلين متمايزين عن بعضهما تماماً من الأصل.

ولا مجال هنا لتفسير ذلك، سوى ما أسلفناه حول طبيعة التأليه اليهودي، الذي اتخذ طورين أساسيين، أوما أسميناهما: طور التأليه الإلوهيمي في العصر الإبراهيمي وربما قبل إبراهيم بزمان طويل، واعتمد ثالوثاً يرأسه الرب الإله، وطور التأليه اليهوي في العصر الموسوي وما تلاه، واعتمد مجموعة بعول أو ثيران تتسم بالصفات البركانية، مع التأثيرات التي لاشك دخلت هذا السفر إبّان وجود اليهود أسرى في بلاد الرافدين، حيث

كان الجو الديني يعبق بسفري التكوين السومري والبابلي وهو ما نجده واضحاً في المقارنة التالية:

١ ـ يقول: التكوين السومري: في البدء لم يكن في الوجود سوى محيط بدئي مظلم، وهذا الغمر كان هو (نمو)، وقام الإله الهواء الريح (إنليل) بالفصل في هذه المياه بين سماء وأرض.

ويقول التكوين البابلي: في البدء كان غمر مظلم أنثى هي (تيامت)، شقها (مردوخ) كما تشق الصدفة إلى قسمين: سماء وأرض.

ويقول التكوين التوراتي: في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف فوق المياه.. وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، ولكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحتِ الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان كذلك، ودعا الله الجلد سماء.

٢ ـ يقول التكوين البابلي: إن (مردوخ) أظهر اليابسة على الماء بأنه على سطح الماء ضفر حصيراً، وصنع شيئاً من التراب، وخلطه مع الحصير وهذا كون لوحاً صلباً فوق المياه، وهو الأرض.

ويقول التكوين التوراتي: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة، وكان كذلك، ودعا الله اليابسة أرض.

٣ ـ ويقول التكوين السومري: إن إنليل شاء إزالة الظلمة من على الغمر، (فأظهر للعيان) بالنورين العظيمين، الشمس والقمر.

ويقول التكوين البابلي: إن (مردوخ) سلط القمر على الليل، وجعله زينة في الليل، به يعرف الناس مواعيد الأيام، كذلك جعل الشمس للنهار».

ويقول التكوين التوراتي: وقال الله ليكن نور، فكان نور، ورأى الله

النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. . وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء، لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. . لتنير الأرض. . فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل.

٤ ـ يقول التكوين السومري: قامت إلهة أنثى بعجن طين، خلقت منه الإنسان الأول، بعد أن عجنت بسائل الخصب (ابسو وإنكي) المني المقدس، وأن الإنكي أو الإنسي عصى أوامر إلهية، فأكل ثماراً محرمة، أصيب بسببها بمرض في واحد من ضلوعه، حتى أشرف على الهلاك، «لن أنظر إليك بعين الحياة حتى تموت» ولم ينقذه إلا استخراج ضلعه المريضة، لتصنع منها زوجة له، هي (نن تي) أو (ننتو) سيدة الضلع، وتعني أيضاً سيدة الحياة أو التي تحيي أو الوالدة، فالإنسان بذلك خلق ذكر وأنثى معاً في ذات واحدة، ثم فصلا بعد ذلك.

يقول التكوين التوراتي: يوم خلق الله الإنسان، على شبه الله عمله ذكر وأنثى خلقه، وباركه، ودعا إسمه آدم يوم خلق. . وقال الرب ليس جيداً أن يكون آدم وحده. . فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة. . ودعا آدم امرأته حواء، لأنها أم كل حي ثم يقول إن حواء الحية (وهي من حوى، وحياة، وحيا أي فرج)، وقد خدعت زوجها (إليه اشتياقها) فأكل معها من ثمرة المعرفة المحرمة وأول ما عرفاه ـ وهنا الغريب ـ أنهما عريانين؟ وهو الفعل الجنسي إذن! وهو ما ذهبنا إليه عند معالجتنا سف. التكوين السومري.

٥ ـ يقول التكوين البابلي: إن الدم هو سر النفس أو الحياة، لذلك كان لابد كي يوجد الإنسان حياً، أن تخلط النفس الحياة مع الطين، وكان الدم عند الأقدمين هو سر الحياة، عندما كانوا يرون المرأة المتميزة بالقدرة على

الولادة، تتميز بدورها بالدم الشهري، وأن هذا الدم ينقطع عند الحمل فتصوروا أنه يظل في الداخل ليعطي المولود حياته، وحتى يسلب التكوين البابلي المرأة هذا الحق البيولوجي، وينسبه للرجل قاموا بذبح (كنجـو) ليخلطوا دمه بالطين، ويخلقوا الإنسان.

وفي التشريع التحريمي تقول التوراة: لكن احترز لا تأكل الدم، لأن الدم هو النفس، فلا تأكل النفس مع الدم (تثنية ـ ١٢).

٦ ـ في الختم (المفترض أنه سومري حسب تصنيف الآثاريين) رأينا الحية توعز للأنثى الأولى بأكل ثمار التمر (ولا تنسى الثمر المحرم الذي أكله إنكي، فتدعو زوجها لأكله، مما يؤدي إلى انتهاء الخلود الفردي وبداية خلود النوع بالتناسل، بخروج إنكي أو إنسي وزوجته (نن تي)، من أرض الخلود دلمون، وكان الخلود يتمثل في نبتة لو أكلها الفاني خلد وفي ملحمة جلجامش علمنا أن هذه النبتة لا تنمو إلا في أرض الخلود (دلمون) مقر الآلهة الخالدة.

ويقول التكوين التوراتي: وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذي جبله.. وشجرة الحياة وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر.. وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها سوف تموت (ثم خلق له حواء كما شهدنا) وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل.. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعرفا أنهما عريانين، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآرز، وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا للأبد، فطرد الإنسان، وأقام

شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة (ولنلحظ أن شجرة الخلد لم تكن محرمة أصلاً، ولكن أكل آدم من شجرة المعرفة نبه الرب الإله إلى أنه غفل عن امر شجرة الحياة، مما اضطره إلى طرد المخلوق البشري من موطن هذه الشجرة، حتى لا يخلد كالآله).

٧ ـ والغرض من خلق الإنسان في التكوين السومري والتكوين البابلي، هو أن يحمل الإنسان عناء عمل الآلهة، بأن يزرع الأرض ويعمل فيها ليحفظها.

وفي التكوين التوراتي أخذ الرب الإله آدم، ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها.

٨ ـ وفي التكوين البابلي: كان مفترضاً أن تتم عملية الخلق بالكلمة الخالقة للإله (مردوخ)، ومع ذلك كان الخلق يتم دائماً بالصنعة اليدوية.

وفي التكوين التوراتي: كان الإله ينطق الكلمة الخالقة (ويبدو أنه كان لا يحدث شيء بالمرة عند نطقها)، لذلك كان الإله يضطر دائماً إلى صناعة الشيء المراد خلقه بالعمل اليدوي.

٩ ـ وفي التكوين السومري، وبعد عناء عملية الخلق، جلست الآلهة لتستريح وفي التكوين البابلي، استوى مردوخ على عرشه، أما في التكوين التوراتي، عندما (فرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، استراح في اليوم السابع).

* * *

الهوامش

(١) د. فريحة: دراسات.. سبق ذكره، ص١٩٨ .

(٢) د. حسن حنفي: (هوامشه على ترجمة لكتاب اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، مراجعة د. فؤاد زكريا) دار الطليعة، بيروت، ط٢ ، ١٩٨١ ، ص٢٨ .

(٣) السواح: سبق ذكره، ص١٠٨ .

(٤) وليم لانجر (وآخرون): موسوعة تاريخ العالم، أشرف على الترجمة د. محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت ص٦٦ .

(٥) موسكاتي: (عن فلهاوزن) سبق ذكره، ص١٥٧ .

(٦) د. حسن حنفي: سبق ذكره، ص٣٨ .

(٧) تابوت العهد أو تابوت الشهادة: هو تابوت أمر الإله «يهوه» نبيه (موسى) بصنعه وفق مواصفات محددة، فيما تزعم التوراة، بهدف أن ينزل الإله ويستقر فيه، فيحمله اليهود معهم أينما حلو أو ارتحلوا، ليتمكن من الاطلاع على أحوالهم عن كثب، ومن ثم يتمكن من مد يد العون الفورية لنصرتهم على أعدائهم، وعند حط الرحال كان هذا التابوت يوضع في خيمة خاصة سميت خيمة الاجتماع، حيث يجتمع فيها موسى بربه بعيداً عن أعين المتطفلين، وهناك يتشاور الرب والنبي، ويتلقى النبي توجيهات الرب وأوامره، وقد استطاع الفلسطينيون عند دخول اليهود بلادهم، أن ينتزعوا هذا التابوت من اليهود خلال معركة عنيفة، فكانت النتيجة أن الرب الراقد في التابوت لم يميز بين الفلسطينيين واليهود، إنما وقف إلى جانب من يحملونه في رحلهم، وانحاز للفلسطينيين الذين أمكنهم الاحتفاظ بتابوته، فنصرهم على اليهود، ولم يتمكن اليهود من استعادة النصر إلا عندما استطاع داود النبي استعادة التابوت بعد معركة شرسة مع الفلسطينيين، وقد وردت إشارة لهذا التابوت في القرآن الكريم، حيث قالت الآيات عن شرعية ملك الملك داود: ﴿أن آية ملكه، أن يأتيكم التابوت، فيه سكينة من ربكم﴾ (البقرة ٢٤٨).

(٨) د. ايفار لسنر: الماضي الحي، حضارة تمتد سبعة آلاف عام، ترجمة شاكر ابراهيم سعيد، مراجعة د. محمد أبو المحاسن عصفور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١ ، ص١٤٢ .

(٩) يوسـفيوس: Fil avius Josepheus أشهر المؤرخين اليهود في القرن الأول الميلادي، وينحدر من ناحية الأم من سلالة الأمراء الحشمونيين، الذين حكموا في فلسطين قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة، وهم الذين قاموا بضبط وتنقيط كلمات الكتاب المقدس، وفق قواعد اللغة الآرامية، ويوسفيوس يعد من ناحية الأب فرداً في السلك الكهنوتي، وقد ولد في فلسطين في الموضع المزعوم أنه (أورشليم) حوالي عام ٣٧م، وقاد ثورة كبرى لليهود ضد الاحتلال الروماني، واعتقل، ثم أفرج عنه سنة ٧٠م، وبعدها عاش في عاصمة الامبراطورية (روما) يكتب ويؤلف، حتى مات هناك عن ٩٨ عاماً، وأهم ما تركه لنا مؤلف من سبعة أجزاء يروي تاريخ اليهود النضالي، بعنوان (حروب اليهود) وقد كتبه باللغة العالمية آنذاك، الآرامية، كما ترك لنا (تاريخ اليهود القديم) في عشرين جزءاً من بداية الخليقة وحتى عام ٦٦م.

(١٠) موسـكاتي: سبق ذكره، ص١٤٣ - ١٤٤ .

(١١) د. أحمد سـوسة: العرب واليهود في التاريخ، دار العربي للاعلان والطباعة والنشر، ط٢ ، دمشق، ص٢٦٩ ، ٢٩٧ ، وقد لحظنا أن د. سوسة اقتبس هذه المادة جميعها عن د. أحمد شلبي في كتابه: مقارنة الأديان، اليهودية نشر مكتبة النهضة المصرية، ط. هـ، القاهرة ٥٦ ، ١٩٧٨ ، وأن د. شلبي بدوره قد اقتبسها عن ويلز في:

Wells: Hsitory of the world, 93 the Out line of History vol4. pp 204 – 207.

(١٢) عبد الحميد العلوجي وآخرون: شخصية نبوخذ نصر الثاني، دار الحرية للطباعة بغداد، ١٩٨٢ ، ص٥٨ ، ٥٩ ، ٦٤ .

(١٣) لسنر: سبق ذكره، ص١٤٤ ، ١٤٥ .

(١٤) نفسـه: ص١٤٠ .

(١٥) د. فريحة: ملاحم.. سبق ذكره، ص١١٨ : ١٢٥ .

(١٦) د. جـواد علـي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ، ص١٧ .

(١٧) ديتلف نيلسـن: الديانة العربية القديمة، بحث ضمن كتاب التاريخ العربي القديم، مع مؤلفين آخرين، ترجمة د. فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨ ، ص١٢٧ .

(١٨) موسـكاتي: سبق ذكره، ص١٢٧ .

(١٩) نيلسـن: الديانة.. سبق ذكره، ص١٨٤ .

(٢٠) من العجيب حقاً أن نلاحظ تواجد الإلهين (إيل) و(يهوه) في عبادات جنوب جزيرة العرب، ونلحظ ذلك في تركيب قوائم الملوك، التي عادة ما يتألف فيها اسم الملك من ملصقين أحدهما الاسم الإله مضافاً إلى النعت الذي يفيد الانتساب إلى الإله أياً كان لون هذا الانتساب، وفي القوائم الملكية التي أوردها العلامة (هومل) عن الأركيولوجي (جلازر) وربما عن آخرين معه، أسماء لملوك معينين تحمل أسماء (إيلي يبيع، وقهي إيل، إيل معدي) وفي قوائم ملوك قتبان وسبا وهمدان نجد أسماء جديدة، يلصق فيها اسم الإله الجديد (يهو)، مثل: (شومو هو عليا، يوها أمين يوها نعيم، يهو أمين، يهو رجيب، يهو ضبيع). ارجع إلى قوائم الملوك كما أوردها (فرتز هومل) في (التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، ضمن كتاب تاريخ العرب القديم بالاشتراك مع نيلسن وآخرين) ترجمة د. فؤاد حسنين مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨ . صفحات ٦٥ : ٦٨ ، ٧٧ ، ٧٩ .

(٢١) د. فريحة: دراسات.. سبق ذكره، ص٩١ .

(٢٢) موسكاتي: سبق ذكره، ص٣١٩ .

(٢٣) د. فريحة: دراسات.. سبق ذكره، ص١٩٧ : ٢٠٩ .

(٢٤) نيلسن: الديانة.. سبق ذكره، ص٢٢٣ .

(٢٥) د. شلبي: سبق ذكره، ص١٨٤ .

(٢٦) نفسه: ص١٦٩ .

(٢٧) د. يعقوب السيد بكر: تعليقاته وهوامشه على ترجمته لكتاب موسكاتي السابق ذكره ص٣٤٩ .

(٢٨) ديورانت: سبق ذكره، ص٢٣٨ .

(٢٩) - Lods (A): Israel from its beginnings to the middle of the Eigth century, London, 1913, pp 321 – 322.

(٣٠) د. سيد القمني: الأضاحي والقرابين، سبق ذكره.

(٣١) - Stade (B): Lehr buch der hebraischen grammatik, Libzig, 1979, p429. الهامش الأول.

(٣٢) Wallhausen (J): Die Biblischen Atertu mer. انظر أيضاً هوامش د. يعقوب سيد بكر على ترجمته لكتاب موسكاتي (الحضارات السامية القديمة) ص٢٨٦ .

(٣٣) عباس العقاد: الله، كتاب الهلال، سبتمبر ١٩٤٢ ، ص١١٣ .

(٣٤) السواح: سبق ذكره، ص١٠٨ .

(٣٥) وقد ترددت أصداء الألواح المكتوبة بإصبع الله في الديانة الإسلامية، فيقول الله في آيات القرآن الكريم وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة (١٤٤ الأعراف) وفي الحديث عن النبي محمد (ص): «إن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده» (انظر: الشهرستاني: الملل والنحل تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١ ، ج١ ، ص٢٢١١ .

(٣٦) د. أحمد شلبي: سبق ذكره، ص١٧٦ ، مأخوذ عن Smith, God and Man in erly Israel, p. 35.

(٣٧) للمزيد حول عبادة آلهة الجنس، وبوجه خاص عشتار وتموز، ارجع إلى بحثنا (إله الجنس أو الزهرة) آفاق عربية، وزارة الاعلام العراقية، عدد ٩ سنة ١٩٨٢ .

(٣٨) د. شلبي: ص٩٧ ، أخذه عن جيمس هوسمر.

(٣٩) الزمخشري: الفائق، طبعة محمد أبو الفضل وعلي البجاوي، ج٢ ، القاهرة، ١٩٤٧ ، ص٤٠٨ .

(٤٠) القزويني: عجائب المخلوقات، جوتنجن، ١٨٤٩ ، ص٥٦ .

(٤١) أبو الفرج الاصفهاني: الأغاني، بولاق، ١٢٨٥ هـ، ص١٦٠ .

(٤٢) موسكاتي: سبق ذكره، ص٣٠٥ .

المصادر العربية والمراجع (المترجمة) الواردة في ثبت الهوامش

(١) القرآن الكريم.
(٢) الكتاب المقدس.
(٣) موسوعة تاريخ العالم (وليم لانجر وآخرون). أشرف على لجنة المترجمين د. محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية د.ت.
(٤) التكريتي (سليمان): أساطير بابلية، مطبعة النعمان، النجف العراقي، ١٩٧٢ .
(٥) الزمخشري: الفائق، طبعة محمد أبو الفضل وعلي البجاوي، ج٢ ، القاهرة ١٩٤٧ .
(٦) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦١ .
(٧) الأصفهاني: الأغاني، بولاق، القاهرة، ١٢٨٥هـ.
(٨) السواح (فراس): مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت ١٩٨٠م.
(٩) العلوجي (عبد الحميد): شخصية نبوخذ نصر الثاني، دار الحرية للطباعة بغداد، ١٩٨٢ .
(١٠) العقاد (عباس محمود): الله، كتاب الهلال، القاهرة، سبتمبر ١٩٤٢ .
(١١) القزويني: عجائب المخلوقات، جونتجن، ١٨٤٩ .
(١٢) القمني (سيد): من الطوفان السومري إلى الطوفان النوحي، آفاق عربية، بغداد ٩ ، ١٩٨٣ .
(١٣) القمني (سيد): الأضاحي والقرابين: الجذور الاجتماعية، فكر للدراسات والأبحاث، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، عدد١١ .
(١٤) القمني (سيد): إله الجنس أو الزهرة، آفاق عربية، بغداد، ٩ ، ١٩٨٢ .
(١٥) القمني (سيد): القمر الأب أو الضلع الأكبر في الثالوث، الكرمل، نيقوسيا، عدد ٢٦ .
(١٦) برستد (جيمس هنري): انتصار الحضارة، ترجمة د. أحمد فخري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

(١٧) بكر (د. يعقوب السيد): هوامش مطولة وشروح وافية على ترجمته لكتاب موسكاتي (الحضارات السامية - القديمة) دار الكتاب العربي للطباعة القاهرة، ١٩٥٧ .

(١٨) بوتير و(جان): الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، نشر جامعة بغداد، ١٩٧٠ .

(١٩) تشايلد (جوردن): التطور الاجتماعي، ترجمة لطفي فهيم، مؤسسة كل العرب القاهرة، ١٩٦٦ .

(٢٠) حسن (د. حسن إبراهيم): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافة والاجتماعي مكتبة النهضة المصرية، ط٧ ، القاهرة، ١٩٦٤ .

(٢١) حنفي (د. حسن): هوامشه على ترجمته لكتاب اسبينوزا. رسالة في اللاهوت والسياسية، مراجعة د. فؤاد زكريا، دار الطليعة بيروت، ط٢ ، ١٩٨١ .

(٢٢) دولابورت (ك): بلاد مابين النهرين، حضارة بابل وآشور، ترجمة مارون الخوري، دار الروائع الجديدة، بيروت.

(٢٣) ديورانت (ول): قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ط٣ ، ١٩٦١ .

(٢٤) رشيد (د. فوزي): الديانة، المعتقدات، (ضمن مجموعة مجلدات تاريخ العراق بالاشتراك مع آخرين)، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥ ، ج١ .

(٢٥) رشيد (د. فوزي): خلق الإنسان في الملاحم السومرية والبابلية، آفاق عربية، بغداد، آيار ١٩٨٧ .

(٢٦) زايد: (د. عبد الحميد): الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.

(٢٧) ساندرس (ن.ك): ملحمة جلجامش، ترجمة نبيل نوفل وفاروق حافظ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠ .

(٢٨) سوسة (د. أحمد): العرب واليهود في التاريخ، دار العربي للاعلان والطباعة والنشر، ط٢ ، دمشق، د.ت.

(٢٩) شلبي (د. أحمد): مقارنة الأديان، اليهودية، مكتبة النهضة المصرية ط٥ ، ١٩٧٨ .

(٣٠) صالح (د. عبد العزيز): الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، الهيئة المصرية العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٦٧ .

(٣١) ظاظا (د. حسن): الساميون ولغاتهم، مطبعة المصري، الاسكندرية، ١٩٧١ .
(٣٢) علي (د. جواد): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقي.
(٣٣) علي (د. فاضل عبد الواحد): الطوفان في المراجع المسمارية، أوفست الإخلاص، بغداد ١٩٧٥ .
(٣٤) علي (د. فاضل عبد الواحد): عشتار ومأساة تموز، وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧٣م.
(٣٥) غود وليبية (موريس): ضمن كتاب: حول نمط الانتاج الآسيوي، مع جان سوريه وآخرين، ترجمة جورج طرابيشي، دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٢ .
(٣٦) فريحة (د. أنيس): دراسات في التاريخ، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠ .
(٣٧) فريحة (د. أنيس): ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار، بيروت ط٢، ١٩٧٩ .
(٣٨) كارلوفسكي (س. لامبرج): دلمون مدخل إلى الخلود، ترجمة كامل مصطفى اللحام الثقافة العالمية، وزارة الاعلام الكويتية، مارس ١٩٨٣ .
(٣٩) كريمر (صموئيل نوح): السومريون، تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة د. فيصل الوائلي، وكالة المطبوعات الكويت، د.ت.
(٤٠) كريمر (صموائيل نوح): الأساطير السومرية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٧١ .
(٤١) كريمر (صموئيل نوح): من ألواح سومر ترجمة طه باقر، مؤسسة الخانجي القاهرة، ١٩٧١ .
(٤٢) لسنر (د. إيغار): الماضي الحي، حضارة تمتد سبعة آلاف عام، ترجمة شاكر ابراهيم سعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١ .
(٤٣) لويد (سيتون): آثار بلاد الرافدين، ترجمة د. سامي سعيد الأحمد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠ .
(٤٥) ميخائيل (د. نجيب): مصر والشرق الأدنى القديم، حضارة العراق القديم ج٦ ، دار المعارف القاهرة، ١٩٦١ .
(٤٦) هومل (فرتز): التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، بالاشتراك مع مجموعة من العلماء في مجموعة أبحاث بعنوان: التاريخ العربي القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين،

مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨ .
(٤٧) الديانة العربية القديمة، بالاشتراك مع مجموعة علماء في مجموعة أبحاث بعنوان: التاريخ العربي القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨ .

المصادر الأجنبية الواردة في ثبت الهوامش

(1) **Chesneaux (jean):** In center d'Etudes et de Recherches Marxistes (C.E.R.M) Sur Le "Mode de production a siatique Editions Sociales, Paris, 1969.

(2) **Frankfort (Henri):** La Royautu et les dieax, palot, paris, 1951, the Birth of Civilisation in the Near Eeast.

(3) **Frankfort (Henri):** Wiliams and Norgate limted, Great Britain, 1951.

(4) **Lods (A):** Lsrael from its beginnigs to the middle, of the Eight century, london, 1973.

(5) **Smith:** God and Man in early Israel.

(6) **Stade (B):** Lehrbuch der hebraischen grammtik, Libzig, 1979.

(7) **Wallhausen (j):** Die biblischen Atertu mer.

(8) History of the Worls, the Outline of History, Vol4.

المحتوى

قصة الخلق

أو منابع سفر التكوين

سفر التكوين هو قصة البداية

أو هو سفر الحكاية الأولى.

أو هو رواية المجتمع الإنساني مذ كان تجمعاً، في البدء وكيف كان؟ إلى أن بلغت الرواية اكتمال نضجها مع قمة تطور السلطة في المجتمع الإنساني، وعندما يحدث التطور الجديد الآتي، فلن يكون ثمة حاجة للرواية، التي رفعت من زمن بعيد لعالم مفارق، كمرآة للواقع الأرضي.

فعندما كان المجتمع في الابتداء مشاعاً، كان أرباب السماء في متعة الشيوع تمرح، وعندما تحول المجتمع الأرضي إلى مشتركات ترأسها مجامع ديمقراطية بدائية، أصبح للآلهة ذات المجامع، لكن لتقرر للبشر على الأرض المصائر، وعندما تم تقسيم العمل على الأرض، تحول مجتمع السماء إلى آلهة شغيلة، وآلهة للتفكير والتدبير.

وعندما تمكن الإنسان من الابتكار وصنع الجديد، لم يكن من قبل كائناً، تمكنت آلهة السماء من الخلق والتكوين، وعندما تمركزت السلطة على الأرض، في يد ملك على رأس دولة مركزية، وأصبحت كلمة الملك نافذة لا تقبل الإرجاء، قيل إنه في البدء كانت الكلمة رغم أنه في البدء كان المشاع، والفعل بلا كلام، فلم يكن ثمة لغة بعد.

وما كتابنا هذا إلا شرحاً لذلك.

وما كشوفنا فيه إلا ناتج قراءة غير مقلوبة لأوضاع مقلوبة، ورؤية غير معتادة لرؤى معتادة، وربط للأرض بالسماء، وتسجيل لأثر الإنسان القدسي ووحيه الصاعد على معراج حركة المجتمع البشري.

وإذا وجد قارئنا في تلك المقدمة العجلى لغزاً، فما عليه إلا أن يشمر على همته ليتابع معنا الحل في صفحات الكتاب.

سيد محمود القمني

مكتبة مدبولي / 11